إميل القاسمي

جبل الشوع

رواية

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

الإهداء..

إلى والديّ

شمسة و حمدان

(1)

عبدالله الصريوخ رجل في أواخر الأربعينات من العمر، تقاعد من الخدمة العسكرية بعد أن قضى أكثر من ربع قرن وهو يتنقل من معسكر إلى آخر، وبعد أن وصل إلى رتبة رقيب أول، بعد أن وصل راتبه إلى أربعمائة ريال، وقبل أن يتمتع بهذا الراتب الجميل، جاءته المفاجأة من مسؤوله الضابط وهو يحمل له ورقة إنهاء خدمته العسكرية وإحالته إلى التقاعد،

يومها ظل في سريره في الغرفة الممنوحة له، ظل يقرأ الرسالة ويعيد قراءتها، ثم يحملق في الغرفة ومحتوياتها، مفكرا في الأشياء التي يجب عليه أخذها معه نهائيا إلى بيته، وأحيانا يطلق العنان لذاكرته لتروي له سيرة ربع القرن الذي قضاه من عمره في وظيفته .

كان قد تلقى إنذارا قبل أشهر بأنه سيحال إلى التقاعد، حسب بأن الفترة القادمة ستطول قليلا، تحسس سريره، قبض على اللحاف بيده، قال للأشياء من حوله : لا تتركيني أذهب، ماذا سأفعل هناك في القرية، هنا مضى عمري وهنا تولدت أحلامي، صرخ في ذاته، أغمض عينيه وأنصت لصراخه يتردد في الأعماق، فتح عينيه على شاشة التلفاز الصغيرة وهي تعكس وجهه، نظر إلى هيئته المنعكسة على الشاشة، التفت ناحية المرآة المسمّرة بالقرب من الباب، وقف ثم اقترب منها، نظر إلى صورته، إلى عينيه التين بدتا متعبتين، إلى التغضنات التي بدأت تتكاثر حولهما، قال لنفسه : ترى هل مر العمر سريعا دون أن أدري ؟ هل أشبهني عندما جئت إلى هنا قبل سنوات ؟ أغمض عينيه ثانية، أخذ شهيقا عميقا وحبسه بداخله، الغرفة لها رائحة مميزة، سيفتقد الرائحة وسيفتقد خصوصيته، سيعود إلى قريته، إلى أولاده الذين كبروا بعيداً عنه، إلى زوجته، وإلى حكايات القرية التي لا تنتهي .

مدّ يده ورفع الصورة التي علقها على الباب من الداخل، كانت صورته بلباسه العسكريّ، التقطها له مصور الاستوديو الذي في جوار المعسكر، تبدو خطوط رتبته واضحة، تعمد أن تكون التقاطة الصورة جانبية . مسح الغبار عنها، كانت أول أشيائه التي بدأ يجمعها ويودعها حقيبته، أخذ أيضا ماكينة الحلاقة والمصحف الشريف الذي كان على الطاولة بجانب الكنبة .

عبدالله الصربوخ صاحب هذا اللقب الرنّان الذي التصق به منذ بدايات عمله، حين جاء من قريته البعيدة إلى معسكر الجيش في بدبد، خرج من مدرسته وهو في الصف الثاني الاعدادي، كان الجميع يشيد بذكائه ويعقد الآمال عليه، كان كادر التدريس في تلك الأيام من المصريين، ولم يكن في الصف سوى خمسة عشر طالبا فقط، كان عبدالله أشطرهم، حتى أن معلم الرياضيات كان يكتب القاعدة على السبورة ثم يطلب منه أن يحل التمارين عليها وأن يشرح لزملائه ويوضح لهم القاعدة بطريقته .

شرح لهم القسمة المطولة، أعاد حل الكثير من المسائل وحاول خلق طريقة لتبسيط طرق الوصول إلى الحل، كانت بعض الطرق عجيبة ولم يسمع بها معلم الرياضيات، كان

يخرج من حصته تاركا عبدالله مواصلا شرحه وهو في أشد الحيرة والعجب منه، يذهب إلى فناء المدرسة ثم يخرج علبة السجائر من قميصه ويدخن مرتبكا، متسائلا من أين يستطيع طفل مثل هذا على كل هذه الاستنتاجات .

في دروس الهندسة، كان يهوى النظريات والاستنتاجات، يضع المعلم القاعدة ثم يكتب لهم طريقة استنتاجها، بعد ذلك يقوم هو بشرح طريقة أخرى للوصول إلى تلك القاعدة، تجعل المعلم يصرخ بكل قوته :

ـ يا صلاة النبي يا صلاة النبي، إنت ايه يابني ؟.

في الحقيقة ملامح وجهه لا توحي بأية لمحة من ذكاء أبدا، يبدو تماما كطفل عادي .

كثيرا ما تحدث المعلمون فيما بينهم عن نباهة ونبوغ عبدالله وولعه الدراسي، كثيرا ما تنبأوا له بمستقبل جميل في ذلك الزمن القاحل من الكوادر المتعلمة في البلد، الكل كان يحترمه ويقدره في المدرسة، الكل يعامله بطريقة تختلف تماما عن تعاملهم مع طلابهم الآخرين، وكما هو في مادة الرياضيات، فهو أيضا في كل المواد الأخرى دائما تأتي درجات إختباراته في المرتبة الأولى .

في كل سنة يقفز فيها عبدالله من صف إلى صف، كانت سيرته تسبقه، حتى مع المعلمين الجدد الذين يأتون إلى المدرسة، كانوا يجيئون وهم يعلمون بوجود طالب مختلف، لذلك كثير منهم يود التقرب منه وأن يفهموا طريقة تفكيره، ولكنهم يصطدمون بأن كلامه طبيعيٌ وعاديٌ تماما مثل أي طفل، وجهه لا يدل على أنهم يقفون أمام رجل صغير، وبعضهم يتمادى ويسأله عن أحلامه المستقبلية فلا يسمع إلا آراء طفل في سنه تماما .

الصدمة تجعل الكثيرين منهم يتخيلون بأنهم أمام طفل بشخصيتين منفصلتين، فهو في أثناء الدرس طفل آخر، طفل نابغة، يسأل ويجيب ويناقش في قواعد اللغة العربية وفي الرياضيات والعلوم وغيرها، وهو في الواقع طفل طبيعي لا تتعدى أحلامه جلوسه أمام شاشة التلفزيون ليشاهد بحب وشغف طفولي مسلسل الرسوم المتحركة، لكن ذلك لم يؤثر على طريقة تعاملهم معه .

وكما كان عبدالله الطالب النجيب في صفه، كان سلمان الطالب البليد أيضا، وكما يتحدث المعلمون عن عبدالله ويبدون له اهتمامهم وتعجبهم من نبوغه، كانوا في ذات الوقت أمام عقبة كبيرة في بلادة الآخر، لقد بذلوا جهودا كثيرة حتى

يستمر في انتقاله من صف إلى آخر، وفي آخر العام الدراسي كان يحمل شهادته مع الدوائر الحمراء التي تحيط بكثير من المواد الدراسية .

تربى سلمان في قريته، في حارة تقابل الحارة التي تسكن فيها أسرة عبدالله، يفصل بينهما الوادي وأشجار النخيل التي زرعت على جانبيه، لذلك لم يكونا قد عرفا بعضهما بعضا قبل المدرسة، كانت الحارة الأخرى لكليهما عبارة عن عالم بعيد وغامض لا يصلان إليه إلا في المناسبات التي تحدث نادرا .

سلمان ولد وحيد لوالدين كبيرين في السن، حملت به أمه وهي على مشارف الأربعين من عمرها، حدث ذلك فجأة، حملت به بعد أن وصل اليأس بها وبزوجها من الإنجاب حده، كان حدثا مهما في القرية، صبيحة بنت خليفين زوجة مسعود ود سليّوم حامل ؟!! بعد هذه السنين الطوال ؟!! لم تصدق نساء القرية ذلك الخبر، واعتبر بعضهن الحمل كاذبا، قلن يحدث ذلك للمرأة التي تتمنى الأولاد، وقلن انتفاخ بطنها بسبب العمر، قلن أشياء كثيرة، لكن القلة منهن كنّ يقتنعن بحملها، مع هذا حدث ما حدث، وكبرت بطن صبيحة حتى جاءها المخاض وولدت طفلها الوحيد في وسط الغريفة، في البيت الذي كان فيما مضى قلعة حصينة، في ذلك البيت الطينيّ الذي تهدمت بعض أركانه .

كان مسعود ود سليّوم بيدارا ، يسقي للناس مزروعاتهم وله جزء من ثمار النخيل، أو من الغلّة ، وكان لديه ثور يستأجره الناس للحرث أو لتلقيح أبقارهم .

مسعود البيدار، كما يطلق عليه أهالي القرية، الذي لم يخرج أبعد منها ، عاش حياته كما هي، فمنذ أن كبر في بيت والده الذي كان يعمل بيدارا أيضا ، أخذ العمل عنه واستمر فيه .

بعد سنوات طويلة من زواجه بابنة عمه صبيحة بنت خليفين، والتي كانت تلقب بالجابية، وعندما طال انتظار الولد ولم يجيء، بحث مسعود البيدار عن السبب عند البصارين والعطارين، جرب كثيرا من الأدوية التي أعطيت له ولزوجته، علق الطلاسم والحروز في جسمه وفي جسم صبيحة وفي أركان البيت، قيل له أن عليه نذرٌ قديمٌ ولم يوفه، فاشترى ثورا بعشرة قروش وفرق لحمه على البيوت، ولكن كل ذلك قابله اللاشيء، كان انتظاره للولد يكبر ويكبر، وفي كل مرة يأتي بأدوية له ولزوجته يبدأ في الترقب، يسأل صبيحة : هاه، ما تهجسي شيء ؟ كانت هزة رأسها جوابا قطعيا يسقطه في اليأس أو في الحيرة .

أكدت لها العالمة بخبايا وأسرار النساء، العجوز كاذية، بعد أن تحسست بطنها وخاصرتها، وبعد أن أدخلت يدها بين وركيها، أكدت لها أنها بخير، وأنه لا عيب فيها أبدا .

بعد سنوات قالت لها إحدى جاراتها عامرة بنت عزيّز، سعود ود سيف المعلم، يشوف عليش، كل مرّة تخطفي من صوبهم . في البداية استنكرت صبيحة الجابية كلام جارتها عامرة بنت عزيّز لكن السوسة دخلت في رأسها في ذلك اليوم، حالموه ما تروحي معه، هوه رجال يقربلكم، يمكن العيب من زوجش وما حاسة، أحسن تجيبي ولد منه والا تجلسي كذا كما الجوس ؟

تقول صبيحة أن عامرة بنت عزيّز هذي عفريته من عفاريت سيدنا سليمان بن داود، بو تبغاه يستوي يعني يستوي، هيّه ما تلزّم على الوحدة، لكن تدخّللها سوسة فراسها .

ودخلت السوسة في رأس صبيحة، وواعدت ود المعلم الذي يقرب لها، واعدته مرات عديدة ولكن لم يحدث حمل .

قالت لها بنت عزيّز : جرّبي غيره، إذا اللّه ما رزقك من هذا بيرزقك من هذاك .

لكن صبيحة متأكدة الآن تماما، أنها عندما حملت بسلمان لم يقربها في تلك الفترة أحد غير زوجها مسعود ود سليّوم البيدار .

لقبها أهالي القرية بالجابية لكثرة الرجال الذين يذهبون إليها ، كان همها في البداية الولد ، لكن بعد ذلك لم تكن تتمنع من دخول أحد عليها ، هي لم تواعد أحدا لكنهم كانوا يقصدون بيتها ويطرقون بابها في أوقات مختلفة ، أوقات يدركون خلو البيت من مسعود ، الذي كان يقضي جلّ نهاره في سقي مزروعات ونخيل الناس، يعرفون تماما متى يكون بالبيت ومتى يكون خارجه ، يتسابقون سرّا أو علانية من الذي يدخل البيت قبل الآخرين وهم أيضا لا يعلنون عمّا يريدون ولا يقولون لصبيحة شيئاً ، هي تفتح الباب فيدخل الضيف ، تحضر له التمر والقهوة ثم تسبقه إلى غرفتها وتترك الباب مواربا ، يدخل هو بعد لحظات فيجدها هناك مستلقية في انتظاره .

كان يطيب لهم أن يمازحوا بعضهم البعض في سهراتهم على رملة الوادي الناعمة ، يلقون بنكاتهم عن صبيحة الجابية ، هاه عامور ، شايفنك خارج من بيت مسعود العصر ؟ مو تسوي هناك ؟ فيضحك عامور ولا يجيب .

النساء يدركن ماذا يحدث في بيت مسعود البيدار ، يتحدثن خفية عنها ، كل واحدة منهن تكتم عن الأخريات سرّ ذهاب أزواجهن إلى هناك ، يهززن رؤوسهن ، لكن الانفجار يبدو مدوياً عندما تقع خصومة بين إحداهن والأخرى ، حتى

تقول إحداهن : روحي شوفي زوجش البارحة من هين خارج ؟ فترد عليها : زوجي أنا والا زوجش انتيه يالنكرة ؟

مسعود البيدار يدرك ما يحدث في بيته، سمع كلاما عابرا وهو يقطع القرية، تضايق في بداية الأمر وحزن، عاد إلى بيته مهموما، لكنه لم يفاتح زوجته فيما سمع، بعد ذلك كتم حزنه في نفسه واعتاد الأمر، اهتم بشؤونه وصبّ الطين في أذنيه حتى لا يسمع كلاما يكدره عن زوجته .

في قمّة جبل الشوع، كان الوعل يربض مستريحا كل ليلة ووجهه يستقبل القرية، الكل يراه هناك، يعرفه الكبار والصغار، يتمنى القناصون الوصول إليه، لكن بنادقهم لا تستطع الوصول إلى قمة الجبل .

تبدو القمة خالية طوال النهار، حتى إذا حان وقت غروب الشمس، ظهر الوعل على القمة، تيس الوعل الكبير هذا، يقال بأنه يسكن القمة منذ القدم، يحكي عنه كبار السنّ والذين قبلهم بأنه لم ينزل منها ولم يتركها، لم يتخلف ليلة عن مربضه الذي يشرف منه على عالم القرية والجبال المحيطة .

يقال بأن قناصا عتيدا صعد إلى القمة، جابها بقعة بقعة ولم يجد أثرا لذلك الوعل، وصل إلى مربضه، انتظره حتى غربت الشمس لكن الوعل لم يأت، بات ليلته هناك وفي

الصباح نزل عن القمة، وعندما وصل إلى الوادي الذي بدى سحيقا وعميقا، نظر ناحية القمة فرأى الوعل بقرنيه الكبيرين ينظر ناحيته، أقسم للناس أنه صعد إلى القمة وبات هناك، لكن الجميع لم يصدقه، ففي ذلك المساء، في ذات الوقت، عندما كان القناص يقف ناظرا إلى القرية، أخبره بعضهم أنهم شاهدوا الوعل واقفا هناك وسمعوا دحرجات الحجارة قادمة من القمة، كانت الحجارة تتساقط متتالية حتى تصل إلى الوادي .

يحدث أحيانا أن تتساقط الحجارة متدحرجة من القمة، ويعزوا البعض أن هنالك حدثا مهما قادما، وفي تلك الليلة التي ولدت فيها صبيحة طفلها، سمع أهالي القرية صوت الحجارة وهي تتساقط من قمة جبل الشوع .

بعد أن ولدت سلمان، توقفت صبيحة فجأة عن استقبال الرجال داخل بيتها، قالت لعامرة بنت عزيّز : بو باغتته استوى، وما أريد حد يجيني . كان ذلك كفيلا لكي ينتشر الخبر في القرية، ومن يومها لم يطرق أحد باب صبيحة .

عندما تنظر إلى وجه سلمان تجد تقاسيم وملامح وجهه قريبة جدا من أمه، له وجه مدوّر منتفخ الوجنتين، ممتليء، تكسوه بعض الحمرة الخفيفة على خديه، وله عينان كبيرتان تشبهان عينيّ أمه أيضا، كان ممتلىء الجسم وقصيرا بعض الشيء .

كبر سلمان في بيت أهله، كبر في ذلك البيت الذي هو غرفة واحدة، غرفة من الطين يلتفّ حولها سياج من السعف يمثّل فناء المنزل، كان ذلك البيت على الجهة الغربية من الحارة الشمالية للقرية، والذي يقع خلفه الجبل مباشرة، الجبل المليء بالكهوف والمغارات .

ذات مساء جاء سلمان من ناحية الجبل مرتجفا من الخوف وباكياً، حيث كان يقضي حاجته هناك، لم يكن بالبيت حينها مرحاض لقضاء الحاجة، كان الكل يذهب إلى الجبل، سألته والدته عمّا به لكنه لم يقل لها شيئا، كان عمره في الرابعة تقريبا، مرض ليلتها، سرت الحمى في جسده، بدأ في الهذيان، استمرت الحمى لأيام، كانت كفيلة أن تضعف من جسمه، بخّرت صبيحة البيت وطلبت من المعلم أن يقرأ عليه وأن يكتب له بعض الطلاسم التي علقتها لاحقا على صدره .

بعد تلك الحادثة تغير سلوك الولد الذي كان نشطا، صار لا يخرج من البيت إلا نادرا، صار لا يخرج إلا مع أمه حول الحارة، لم يعد يشارك الأطفال لعبهم كما كان سابقا، لم يعد يركض في الأزقة، استهجنت والدته ذلك، لكنها عزت الأمر للحمى التي أصابته، وفسرت أن عينا أو حسدا قد وقع عليه .

كبر سلمان وأدخله والده إلى المدرسة التي بنيت حديثا على أطراف القرية، في بداية الأمر لم يكن يحب الذهاب إلى المدرسة، كان يبكي كل يوم، مما اضطر أبوه لمرافقته صباحا والجلوس معه قليلا في الفصل، إلى أن تعود شيئا فشيئا، ثم بدأ يذهب لوحده مع الأطفال دون رفقة والده .

العلاقة التي ربطت عبدالله الصربوخ بسلمان ود مسعود في بداية سني عمرهما الدراسية كانت عميقة ومتينة، ربما وجدا نفسيهما يتشاركان نفس المقعد منذ البداية .

كانا يأكلان معا، يمشيان معا، ولا يراهما الآخرون إلا معا، وفي خارج المدرسة، في المساء أو في أيام العطل كان يذهب كل واحد منهما إلى الآخر يجوبان طرقات القرية أو يلعبان في الوادي .

الحارة التي يسكن فيها سلمان اسمها الربابة أما الحارة التي يسكن فيها عبدالله فيطلق عليها عنّوبة، وحتى يذهب عبدالله إلى حارة سلمان كان عليه أن ينزل الدرج الحجريّ المنحوت منذ القدم، ثم يقطع الوادي، قافزا من صخرة إلى أخرى ومن شق إلى آخر، كان جانب الوادي الذي يفصل بين حارة الربابة وحارة العنّوبة مليئا بالشقوق التي حفرتها المياه، شقوق مصقولة وملساء، تلمع حجارتها الزجاجية في الشمس،

ثم عليه أن يصعد درجا آخر مرتفعا يفصل مجموعتين من النخيل .

في حارة الربابة تقطن قبيلة الشبابيص، وهي قبيلة وجدت في هذه القرية منذ ما يقارب الخمسمائة عام، يقال إنهم سكنوا القرية بعد حرب طاحنة مع قبيلة الخشوت المعروفة، والتي كانت قد أسست القرية وبنت أبراجها التي على قمم الجبال في شرق القرية وغربها، وهي التي شقت الأفلاج وشيّدت ضواحي المزروعات على سفوح التلال الصخرية على شكل مدرجات تبدأ من ضفة الوادي صعودا حتى الأعلى .

في تلك الحرب الغابرة، يقال بأنه لم يسلم أحدٌ من الخشوت، لقد أبيدت القبيلة بأكملها، رجالا ونساء وأطفالا وعجزة، هجموا عليهم ليلا بمساعدة القبائل في القرى المجاورة . وهنالك على تخوم القرية ترقد أجسادهم في المقبرة التي انطمست آثارها ولم يتبق منها إلا الاسم، الذي أطلق عليها مدينة لخشوت .

سكن الشبابيص القرية وانتقل بعضهم إلى قرى أخرى مجاورة، انتشروا في المكان، أما في القرية فكانوا متوزعين بين الحارات حسب بيوتاتهم وأنسابهم، لكن في حارة العنّوبة شاركتهم قبيلة الحرابيق، الذين كانوا من أقليات القرية،

حيث توجد أقليات أخرى من قبائل أخرى، ولكن السيادة والأوامر والنواهي وما تؤول إليه منافع القرية كان المسؤول عنها قبيلة الشبابيص .

الطفل عبدالله بن سليمان الحربوقي كان يذهب للعب مع صديقه سلمان بن مسعود الشباصي، دون أن يعطيا أمرا جادا لقبيلتيهما، لكن عبدالله سمع مرة وهو يلعب مع صديقه أمام باب بيتهما إحدى النساء وهي تحدث صبيحة الجابية قائلة لها : أوه صبيحوه مو يجي يسوي ود لحرابيق عندكم رايح جاي، عاد ما لقى ولدش حد يرابعه إلا هذا ؟

رسخ كلامها في عقل عبدالله رغم حداثة سنه، شعر بوخزة قوية في قلبه، شعر بأنها تعنيه في المقام الأول ولكنه تجاهلها، لم ينقطع عن اللعب مع صديقه، ولم يخبر أحدا في بيته عمّا سمع، لكن الكلمات ونبرة الصوت كانت ترن دائما في داخله .

ذات يوم وهما يمشيان بين النخيل، صادفهما مجموعة من الأطفال بدأوا يضايقون سلمان ويسمعونه كلاما مشينا عن أمه، اقتربوا أكثر منه وتحلقوا حوله، قالوا له : أمك صبيحوه الجابية ..، وقال له آخر انته طالع كماها، قالوا له : ليش تمشي مع عبدالله .. بيكون تروحوا تتقلبوا في الوادي ..، شدّه

أحدهم من شعره بقوة فتألم سلمان فأراد أن يصفعه لكن الآخرين تدخلوا وحالوا بينهما ، تدخل عبدالله حينها لإنقاذ صديقه، عندها التفّ الجميع عليهما ضربا وركلا ، ثم هرب الأطفال مبتعدين عنهما وقد مرّغوا وجهيهما في الأرض ومزقوا ملابسهما ، كان أحد الرجال من الشبابيص جالسا على جدار الفلج يشاهد مستمتعا بما يحدث، ويوجه الكلام إلى الجميع محفزا لهم بالاستمرار في العراك، كان الفرح يملأ وجهه وهو يراقب الجميع ويصرخ بهم : أيوا أيوا .. من يغلب .. أيوا ..، يومها عاد عبدالله إلى البيت مشجوجا والدم يسيل على وجهه، قال له أبوه : خليهم يتضاربوا .. ويش يخصك .. لو أنت المضروب كانوا كلهم تعاونوا عليك .. حتى سلمان .. كلهم شبابيص .

يذكر أن صبيحة الجابية قالت له عندما عاد ابنها باكيا : انته تسوي مشاكل حال ولدي يوم تمشي معه، لم تنظر إلى عينيه، بل كان عبدالله ينظر إلى وجهها لكنها كانت تنظر إلى باب البيت .

منذ تلك الحادثة وبرغم تقريعات الأهل لكليهما كبرت العلاقة بين سلمان وعبدالله، و ازدادا تعلقا ببعضهما .

كبر عبدالله في قريته، كبر الطفل وصار شابا في مقتبل العمر، كبر معه همه في الخروج من المكان الغاص

بالنزاعات، قال لصديقه سلمان : أتمنى أخرج وأسكن بعيد عن هالبلاد ، كل يوم الواحد منهم شاكي بالثاني، ما عندهم سالفة إلا هذا من الشبابيص وهذا من الحرابيق .

أحب عبدالله الحربوقي ابنة خاله التي تسكن في إحدى القرى التي تبعد مسافة ثلاثين كيلومترا من قريته، رآها عندما جاءت مع أهلها في العطلة الصيفية فتولع بها ، كان مأخوذا بجمالها ورقتها ، التقى بها ثانية عندما زارت الأسرة خاله ، كان يعرفها من قبل ولكن كانت طفله، كان هو أيضا طفلا ، ولكنه الآن يحمل لها شيئا في ذاته، شيئا مختلفا وجميلا كلما تذكر اسمها أو تذكر ملامح وجهها وصوتها ، يسبح في عالم آخر .

كمن يبحث عن شقه الآخر بحث عبدالله فيها عن روحه المنقسمة، تحدث معها فوجد لديها ميولا إلى أحلامه وامنياته الطفولية، تحدثا عن المواد الدراسية وعن المدرسة والمسابقات، عن المسلسلات الكرتونية وما حدث في المسلسل الفلاني وما توصلت إليه الشخصية الفلانية، كان حوارهما يتداخل، كل منهما يكمل ما بدأه الآخر من حديث .

زرعت وردة صغيرة داخل قلبه، لمعت نجمة في البعيد حينما نظر إلى السماء وهو مستلق على رملة الوادي ليلا ، فخرجت آهة

صغيرة بحجم بذرة القت، بحث عن شيء في السماء، أغمض عينيه، بحث في داخله عن نجمة شبيهة، أحس بسخونة الدمعة التي سالت توّا على خده، تساءل : لماذا تخرج الدمعة دون ألم، لماذا يصاحبها شعور بنشوة عميقة ؟ تكاثرت الأسئلة من حوله كحشود من الأطياف تتجمع من كل الجهات، بعضها ينزل من قمم الجبال والبعض الآخر يشق الأرض مختلطا بدخان يحمل رائحة البراكين، هو لم يشم رائحة البراكين من قبل، لكنه تخيل الرائحة قريبة جدا من رائحة الطين المحروق في غرفة الفخار التي رآها حين نزل مع أبيه ذات مرة إلى السوق في تلك القرية النائية .

الأيام التي قضاها عبدالله في بيت خاله كانت أياما رائعة، تمنى أن تطول زيارة أهله ولكن جاء أبوه بعد فترة وأخذهم إلى القرية، تواعدا أن يراسلا بعضهما، اخترعا طريقة للتواصل، كان يكتب لها رسائله ويخبئها حتى إذا سنحت الفرصة أن يلتقيا أعطاها الرسائل جملة واحدة، وهي كذلك، كانت تحب الرسم، صارت تجمع له كل اللوحات التي ترسمها على شكل بطاقات صغيرة ثم تعطيه إياها .

أسرّ عبدالله لصديقه عن شغفه بابنة خاله، قال له :

ـ لو أحصل شغل فأي مكان كنت طلعت من المدرسة واشتغلت .

في المدرسة وهو جالس مع سلمان يتناولان فطورهما في الفسحة، اقترب منه أحد الطلبة من قرية مجاورة، كان اسمه طارق، كان يكبره بسنة في العمر وفي الدراسة، ناداه ليحدثه على انفراد، قال له : انت ولد شاطر وحرام تقضي حياتك على هالاوراق، سمعت انهم يريدوا يوظفوا جنود في الجيش، وأنا ناوي أروح، وإذا كنت باغي تجي معي تجهز من باكر الصبح بنروح هناك ولد عمي، بيساعدنا ويسويلنا واسطة .

عاد عبدالله إلى البيت، تناول وجبة الغداء مع العائلة ثم خرج يمشي في طرقات الحارة . هبط إلى النخيل ثم مشى مع الفلج حتى خرج من القرية، قطع مسافة طويلة في الوادي، وقف بالقرب من بركة ماء عميقة، كانت مياهها صافية، عكست زرقة السماء، جلس على الضفة، غرق في أحلامه، رأى نفسه يحلق بعيدا عن القرية، وهناك حيث لا يعرف أحدا، هناك في المدينة، سيبتعد عن الخصومات والمضايقات التي لا تنتهي، رأى نفسه يأخذ بيد حبيبته ويرحلا بعيدا، اجتاز المكان إلى عالم الحلم، حلم بوجهها، بابتساماتها، بالورود تتفتح في وجنتيها، بذلك الحقل المعشب الأخضر الذي يمتد في صدره كلما رأى صورته منعكسة في بحيرتي عينيها، راقب المياه العذبة وهي تتخلل الحصى منحدرة، قال للبحيرة تشبهين عينيها، وقال للماء

أنت من عذوبتها ، وقال لصوت النسيم أنت من همسها ، فتح يده ونظر في خطوطها المتشابكة ، تخيل أنه يمسك بقبضة يدها الرقيقة ويضمها بين أصابعه ، قبض بكفه على الفراغ ، نظر إلى صورته المنعكسة على الماء وهو يحدث حبيبته ، أنت حبيبتي ، أنت الحلم والغد ، تمنى أن يقول شعرا ، لكنه لا يعرف ، تذكر بعض ما سمعه من أشعار بن حمّاد شاعر القرية ، وبدأ يردده ، لمعت أغنية ففناها وطرب ، دندن بأصابعه على الصخر وهو يتخيل عزفه على آلة العود ، تذكر كتاباتها إليه وتمنى لو يكتب لها عن قراره .

في ذلك اليوم البعيد لم يعد عبدالله إلى البيت ، ولم يكن لأبيه سليمان الحربوقي علم بما حدث معه ، وعندما عاد جميع الطلبة إلى منازلهم ، عندما تغدت كل بيوت القرية ، انتظره من في البيت لنصف ساعة زيادة عن المعتاد ، لكن بعد ذلك أكلوا غداءهم أمرا من أبيهم ، الذي توعد بضربه بعصاه الخيزران وبصلبه على عمود الجص وسط البيت ، كان سليمان يومها غاضبا جدا ، حتى أنه صرخ في وجه زوجته سعدوه بنت مريهين وهددها برميها خارج البيت ، لكنها لم تبادله الصراخ ولا الغضب ، بل ظلت صامته وهي تفكر في ولدها عبدالله وما الذي أخره حتى ذلك الوقت .

بعد صلاة العصر، عاد سليمان من المسجد وهو صامت بوجه متجهم، كانت سعدوه تنتظر أمام باب البيت، تترقب أي خبر عن عبدالله الذي لم يعد حتى ساعتها، ولم تعرف عنه أي شيء، وعندما مرّ بالقرب منها وتخطاها ليدخل، نظرت إليه وراقبته حتى اختفى خلف الباب، بدا عليه الحزن، حزن لم تعهده أبدا على وجهه، وفي داخلها خافت كثيرا، دقّ قلبها بشدة، وتصورت أسوأ الأحداث التي قد تقع على ولدها، بدءا من غيابه وانتهاء بموته، حاولت أن تقوم من مكانها لكن كانت خائفة من أن يكون قد حدث مكروهٌ لولدها .

أغمضت عين الخوف لوهلة ومشت خلف زوجها، وعندما اقتربت منه، سألته إن كان عرف شيئا عن عبدالله، فأخبرها بأنه قد ترك المدرسة وهرب إلى مكتب التسجيل العسكري .

في العشاء التف الأطفال حول البسطة، كل منهم جاء بحكاية مختلفة من الحارة ليرويها، كان الكل يتجادل حول حكاية أخيهم الأكبر عبدالله، ولكن قصة حكيم وهو ابن السابعة كانت أكثر إثارة من الجميع، حيث ذكر حكيم بأن سيارة رمادية اللون ذات نوافذ سوداء معتمة كانت تحوم في المكان، وكان بها رجال يلبسون ملابسا شبيهة بملابس الأطباء، اختطفت السيارة عبدالله مع من اختطفتهم من

القرية، وكان السبب أن هؤلاء الناس سوف يشفطون دم الأطفال المخطوفين حتى آخر قطرة، ثم يرمون بهم بعد ذلك في السيوح لتأكلهم الثعالب .

سارة بنت الرابعة والنصف بكت خائفة من قصة حكيم، ونادت على أمها التي كانت تستمع لثرثرة أطفالها عن قرب، أخبرتها وهي تبكي كيف أن حكيم يخيفها وأنها لن تستطيع النوم الليلة، لأنها تخاف أن تأتي تلك السيارة وتسرقها ثم تشفط دمها .

ركضت مريم ذات الثالثة من عمرها واندست في حجر أمها، عندها نهرت سعدوه ولدها حكيم وهددته بضربه وإخبار والده عن ذلك، لكنه قال لها بأن سعيد ابن جارهم والذي يكبره بسنتين أكد له أحد ممن رأوا السيارة بأنه رأى كل شيء بأم عينه، عندها قالت لهم أمهم بأن أخاهم عبدالله ذهب ليعمل في العسكرية، وأنه لم يختطفه أحد، وأنهم هناك سوف يدربونه على أن يحمي أهله ووطنه من الأعداء والغرباء الذين يجيئون إلى قريتهم ومعهم سيارات داكنة اللون، وأن هؤلاء الغرباء لن يتجرؤوا بعد اليوم على دخول القرية ولن يتجرأوا على اختطاف أحد ولا شفط دمه .

(2)

تقع قرية العسبق بين واديين كبيرين يحدّانها من جهة الجنوب الشرقي والآخر من جهة الغرب، بينما نحتت المياه بعض المسارات الضيقة في جوانبها فأصبحت ترى من فوق القمم مثل شجرة العسبق تماما، ربما لذلك أطلق عليها ذات الإسم، وبين شقوق الوديان، في تلك النتوءات الصخرية الصلدة، ظهرت الحارات ببيوتها الطينية أو السعفية، وفي حارة الشمال كانت البيوت تحيط بقلعة شيدت بالجصّ الحجريّ المحروق .

الأزقة ضيقة وأسقف البيوت واطئة، بينما مزروعات النخيل والليمون والمانجو تتصاعد من الأسفل على شكل مدرجات متناسقة، راعى فيها سكان القرية المساحة الضيقة للمكان، واستغلوا كل شبر فيها .

يقع جبل القرن الكبير على الجهة الشمالية من القرية، جبل أسود بصخور صمّاء وقاسية، صخور ملساء أشبه بقطعة كبيرة من الحلوى، تلك الصخور التي لا تنبت فيها الأشجار سوى بعض الشجيرات التي تقاوم الطبيعة الجبلية والتي نبتت بين الشقوق، يمتد شق عميق وطويل ليفصل بين هذا الجبل وجبل الشوع الذي يمتد على الجهة الغربية للقرية، الشق الذي تمر منه مياه السيول في انحدارها صوب الأماكن المنخفضة حتى تصل إلى البحر .

في تلك البقعة الغارقة بين الجبال، بين الصمت والغياب، نبتت تلك القرية منذ زمن بعيد، لا أحد يدري كم من السنين قد مضى على وجودها، المقابر تتناثر على السفوح القريبة دلالة على قدم عمر الانسان على هذه الأرض، مقابر كثيرة ومتفرقة، راعى فيها سكان القرية تقسيم الموتى، إلى مقبرة خاصة بالأطفال، وإلى مقبرة للأصحاء، ومقبرة أخرى لموتى أصيبوا بأمراض معدية أهلكتهم، وإلى مقبرة خاصة بالقتلى،

حيث لا يصح أن يدفن الأطفال مع الكبار، وذلك رحمة بهم من أن يصيبهم شيءٌ من شرر العذاب الأبديّ ضريبة للجوار، وكذلك لا يصحّ أن يدفن الموتى الأصحاء الذين ماتوا ميتة طبيعية مع الذين ماتوا بأمراض معدية خوفا من أن تظل تلك الأمراض تنتقل إلى الأجساد المدفونة وتعذبها، أما القتلى فلهم مكان خاص إذ لا يدفن جسد الميّت فيه، بل يبنى عليه كومة من الحجر، ويبقى هناك لا يقرب من المكان كائن من كان .

قرية صغيرة جدا، لا تتعدى بيوت حاراتها مئة بيتٍ، تلك القرية التي تربى فيها سليمان الحربوقي، وترعرع قبل أن يسافر خارجا منها ليجوب العالم .

سليمان ولد الصايغ، والد عبدالله الصربوخ، سليمان الولد اليتيم الذي توفيت أمه سلمى بنت زاهر وهو ما يزال رضيعا، ربته شريفة زوجة أبيه، احتضنته بحنانها ودفئها، كانت شريفة عاقرا، تزوجت من محمد الصايغ بعد وفاة زوجته بأشهر، أخذته ليرضع من حليب شياهها .

شريفة من قبيلة القروط، إحدى قبائل الشواوي المحيطين بالمكان، توفي زوجها قبل سنوات، عندما استقرا في قرية العسبق، كان جارا لمحمد الصايغ، بل كان يحتويهما سياج واحد من خوص النخيل .

كبر سليمان ليرى العالم من حوله، عالم القرية المليء بالمشاحنات والمكايدات، عالم القرية الذي جاءه في أقسى سنوات القحط والجوع، ليدرك بعدها موت أمه بعد ساعات من ولادته، لفضت أنفاسها الأخيرة وهي تتمنى أن تأكل قبضة من الأرز، لكن القرية لم يكن فيها إلا بعض التمر المتيبس والنوى المطحون ليكون عوضا عن الدقيق .

كان الأرز في بيت شيخ الشبابيص فقط، ذهب إليه الصايغ طالبا قبضتين منه، قال له سأعطيك ضاحية من نخيلي، لكن الشيخ نكس رأسه وهو يخط في الأرض خطوطا، قائلا له : ماشي عندي .

خرج الصايغ من عند الشيخ وأنفه يمتليء برائحة بخار الأرز الطافحة في المكان .

بكى الصايغ يومها بكاء مرّا، جلس القرفصاء خلف الغرفة التي ترقد فيها زوجته المريضة، وضع رأسه بين ركبتيه وأجهش في البكاء، هطلت دموعه غزيرة مثل غيوم الشتاء التي كلما توقفت عن سحّ المطر إلا وعادت تسحه من جديد وبغزارة شديدة، لكن يد حطت على كتفه، حطت اليد، أخذت تعبه وبؤسه، أخذت وجعه وتلك الجبال التي كان يرزح بها، كانت يد زوجته التي قامت من رقدتها وهي تقاوم المرض، رفع رأسه

ناحيتها فابتسمت له، لم يكن يدر أنها ستكون إبتسامتها الأخيرة، نظر إلى وجهها برغم المرض إلا أنها مازالت جميلة، لم يخب ذلك البريق من عينيها الجميلتين، قالت له بصوت ضعيف:

ـ مو فيك تبكي ؟

ـ ما أعرف، كل شي يخليني أبكي .

أخذت يده ورفعتها ناحيتها، قالت له : قوم، تعال معي .

قام وأخذها في حضنه، كانت متهالكة جدا وضعيفة، وضع ساعدها على كتفه، ولف يده على خصرها، مشت معه حتى باب الغرفة قالت له : خليني أجلس هنا، مليت الغرفة، أبا أجلس معك شوية .

اتكأت على جدار الغرفة، ونظرت إلى الجبال، قالت له : من أصحّ بتوديني وادي الحلفين، يقولوا هناك عين حلوة بو يتسبح فيها يصح .

سألته وهي ترقب حركة أغصان السدرة الكبيرة : هين ولدي ؟

أجابها : مع شريفة .

ـ أبا أشوفه مشتاقتنه اليوم واجد .

ـ انزين تو بجيبه .

قام من مكانه، نادى على شريفة، فجاءت بالرضيع، أخذته بين يديها، نظرت إليه، قال لها الصايغ : يشبهش، ماخذ عيونش وجبينش .

نظرت إليه، فابتسمت، قالت له : لا، هو كله حالك يو مضنوني .

في ذلك المساء اشتد المرض بزوجة الصايغ، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين يدي زوجها، ورغم أنها سكنت في الموت، رغم أنها رحلت بعيدا إلى عالم البرد والضباب، رغم جسدها المسجى والبارد، إلا أن وجهها مازال يحتفظ بتلك الابتسامة الأخيرة .

قالت له شريفة : سلمى من أهل الجنة، ما شفت حد وجهه شارق وضاحك وهو ميت كما وجهها .

لم يعرف سليمان أمّا غير شريفة، هي أخذته إليها منذ البدء، جاءها هدية من اللّه، في ذلك العمر، جاء ليزرع أرضها القاحلة التي هجرها المطر، لتخضرّ روحها وتزهر، لتمتلئ حياتها بالرحيق والعذوبة، بعد أن كانت قد فقدت معنى الحياة ومعنى الحب ومعنى الأمومة .

في الخامسة من عمره، هطلت الأمطار بغزارة شديدة سالت منها الوديان والشعاب، امتلأ المكان بالمياه الجارفة، حملت معها الكثير من جذوع النخل الميتة وأغصان الأشجار اليابسة

لتجرفها معها بعيدا ، كانت القرية ميتة تماما ، تبدو الضواحي خالية من أي عود أخضر .

يتذكر سليمان المشاعر والأحاسيس التي خالجته ساعة وصول السيل بضجيجه ، ساعة امتلاء الوادي بالمياه الجارفة القادمة من السفوح وأعالي الجبال ، تلك المشاعر التي اختلط فيها الخوف مع الفرح ، وهو يرى الناس تركض من كل مكان ليقفوا على ضفاف الوادي ، صارخين بكل قواهم : والواااااادووووي ، وهو يرى الفرحة في عيون الرجال والدموع في عيون النساء .

يومها تمسك بثوب أمه شريفة ، ضم جسده الصغير إليها يلتجئ من كل ذلك الهدير والصراخ ، يومها وهو يرى الرجال قادمين من كل حدب وصوب ومعهم بنادقهم وطبولهم ، أطلقوا الأعيرة النارية وضربوا الطبول وغنوا أهازيجهم للسيل والخصب.

قبل هطول الأمطار ، كان أهالي القرية يدخلون واديا عميقا بين الجبال ، يقطعون مسافة طويلة ليملأوا قربهم وأوانيهم بالماء ، جفت الأفلاج والآبار ، غارت مياه العيون ، ماتت القرية وهاجر عنها أهلها ، إلا القليل ممن بقي واقفا في وجه ذلك الجفاف العظيم .

أعـاد أهـل القريـة زراعـة الـضواحي الميتـة، بـذروا الأرض وفسلوها بالنخل مرة أخرى، كانوا يجيئون بالفسائل من القرى البعيدة التي لم تتضرر بالمحل، وشيئا فشيئاً بدأت الخضرة تعود وبدأت الحياة تدب في القرية من جديد .

من حارة العنّوبة كان سليمان يذهب إلى حارة الربابة حيث يدرس القرآن على يد الشيخ إبراهيم الشباصي، كان أطفال القرية جميعهم يذهبون إليه ليتعلموا على يديه القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وهناك كان يرى مذخور، الشاب ذي البشرة السوداء الغامقة جدا يجلس بجوار الشيخ، يأتمر بأوامره ويساعده في أموره .

العلاقة بين محمد الصايغ والشيخ إبراهيم معلم القرية كانت علاقة صداقة قديمة، كانا يلتقيان دائما ويتزاوران، لذلك عندما زار الشيخ إبراهيم محمد الصايغ في بيته كان قد جاء معه خادمه مذخور، كان سليمان حينها في السابعة من عمره، يذكر أن مذخور جلس بجواره في طرف المجلس، لأنه لا يحق للخدم والأطفال الجلوس بصدر المجالس، همس سليمان لمذخور : شايفنك فلمدارسة، عند لمعلم .

عندما كان سليمان في ذلك العمر، كان مذخور في العشرين من عمره، لكن علاقة وطيدة ربطت بينهما منذ ذلك الوقت .

في الرابعة عشرة من عمر سليمان، توفي والده فجأة، وجدته زوجته شريفة جثة هامدة في فراشه، وفي تلك الأيام أو بعدها بقليل حدث صراع ونزاعات على تقسيم الأموال بين بعض البيوت من قبيلة الشبابيص وبين الحرابيق، جعل القرية متوترة ومستثارة، ولأن الشبابيص هم أغلبية سكان القرية فكانوا يتجمعون عصبة ليغتصبوا الأموال من أصحابها، كان الشيخ ابراهيم معلم القرية ناصحا، لكنهم لم يستمعوا إلى كلامه، بل أن أحدهم رد عليه في إحدى المنازعات : إنت من قبل قلبك مايل للحرابيق، من أيام كنت تروح عند الصايغ .

منذ وفاة والده، وسليمان يحلم حلما غريبا يتكرر معه كلما نام، أحيانا يتكرر الحلم معه كل ليلة، وأحيانا أخرى ينقطع عنه لفترة ثم يعود .

كان يحلم بفتاة تمشي خارجة من بيته، تصعد جبل القرن وهي تناديه، تعال .. تعال .. لم تكن تصرخ، كان صوتها فيما يشبه الهمس مع ذلك كانت الجبال تأخذه بين سفوحها فيتردد صدى الهمس، تخرج من بيته وتقف على التلة التي تشرف منها على الحارة، ومن هناك تلوّح له بيديها .

تغيب الفتاة بين الجبال، يبق صوتها الهامس يتردد في البعيد، تأخذه السفوح إلى عمق الوديان، تعاااااال، تعاااااال .

في كل مرة يحلم بها، يكون واقفا أمام بيته تكون هي واقفة تحت السدرة، تنظر إليه ثم تذهب، تمر من أمامه وهي تبتسم له، ثم يبدأ الهمس محتلا المكان .

حكى لوالدته عن الحلم، قالت له بصوت يتخلله القلق :

ـ كان باغي تشوم لا تجيبلي سوالف لحلوم، ويقولوا أوين لا تخبر حد بحلومك يا ولدي .

ـ لكن انتي ماحد ماه، ويوم أخبرك لأنه محد غيرك، انتي أمي وأبوي وأهلي كلهم .

تحتضنه شريفة وتقبل رأسه ثم تبكي، تتساقط دموعها على رقبته ووجهه :

ـ يو مضنوني انته باقية ناس .

في تلك الأيام أيضا كان الكثير من الناس في العسبق والقرى المجاورة يتحدثون عن السفر إلى الخارج، وكان حلم سليمان هو الانعتاق من تلك الخصومات اليومية والمتأزمة، لذلك قرر السفر، أخبر مذخور بعزمه الذي أخبر بدوره الشيخ إبراهيم.

قالت له شريفة وهي تحبس دموعها :

ـ ومالك ؟

ـ مالي مكانه، بروح وارجعله فيوم من الايام .

ـ بو كاتبنه اللّه لازم يستوي، رضينا والا ما رضينا، من بيروح معك ؟

أخبرها بنيته ولكن لم يكن يعرف حتى ساعتها من سيرافقه في دربه .

كتمت شريفة في أعماقها ذلك الشعور العميق بالفقد، وهي تحدث ولدها، لقد فقدت كل أحبائها قبله، وها هي بلا حول ولا قوة توافقه للسفر بعيدا عن القرية وبعيدا عن عينيها، من سيتبق لها في المكان ؟ قالت تعزي نفسها : البقاء للّه وحده .

أخبر الشيخ ابراهيم خادمه مذخور بأنه قد أعتقه، وباستطاعته أن يذهب حيثما يشاء لو أراد أو أن يبقى في القرية ويستقر فيها .

كانوا أربعة من الشباب، هو وعامر ابن البدوية، وحميد الصابر، ومذخور الذي سمح له الشيخ ابراهيم بالذهاب بحثا عن وطنه وأسرته .

مذخور ذلك الزنجيّ الأسود الذي ابتاعه الشيخ إبراهيم من أحد العمانيين الذين يسكنون الساحل، كان فتى نحيلا وطويلا، اشتراه هو وقيده في البداية حتى يألفه ويألف المكان، كمن يشتري حيوانا متوحشا، لكنه لم يقسُ عليه، بل أعطاه مسكنا بسيطا وأوكله بمساعدته في أعمال مزرعته .

أومبابا أو مذخور، يحكي قصته التي لا يصدقها العقل، بأنه كان ابنا لأحد شيوخ القبائل التي تعيش على أطراف الغابة في شرق أفريقيا، حيث كان يزورهم تاجر عمانيّ يعرف والده جيدا، كان يجيء إلى قبيلتهم ليبتاع منهم بعض المشغولات اليدوية ويبادلهم ببعض ما لديه، كان التاجر يعرف جيدا لغة الأفارقة، يحترمه الجميع هناك ويحبون لكنته وظرافته، مما جعل اومبابا يميل إليه ويستمع له، كانت الإبتسامة لا تفارق محيّاه.

حكى التاجر لأومبابا عن دياره البعيدة، صورها له بجبالها الشاهقة التي تكسوها الخضرة، وجوها اللطيف، وأهلها وبناتهم الجميلات، صور له عالما مختلفا ومختلقا من عقله، أغراه ليسافر معه على ظهر السفينة التي تنتظر قدومه على ساحل جزيرة زنجبار، وكيف أن والده عارض بشدة قصة سفره، لكن الآخر أحب أن يكتشف العالم وأن يبحث فيه عن حياة جديدة.

بعد أن تعلم أومبابا اللغة العربية واستطاع أن يتحدث بها بطلاقة بين أهالي القرية، وعاش ما عاشه من احترام سيده، بعد أن رق قلب سيده لحكايته التي صدقها وهو الذي قرأ في كتب الأولين من كتب العلوم والدين، أعطى له الحرية أن

يسافر أينما يشاء، مزودا إياه بورقة مختومة تساعده حين وصوله إلى الساحل ليركب السفينة التي ستوصله إلى بلاده، كتب الشيخ فيها لأحد أصدقائه النواخذة :-

الأخ العزيز الكريم سيد النواخذة ومعلم البحارة مسعود بن حامد المبجل المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ، ، أما بعد

أما إن سألت عن الأحوال فنحن بصحة وعافية وخير حال وأتمنى أن تكون في صحة وسلامة وخير مديد، وأن يجعل الله رزقك حلالا وأن يمدك في عمرك ويكرمك بالذرية الصالحة، فإنني أرسل إليك هذه الرسالة في يد حاملها خادمي مذخور، الذي أعتقته لوجه الله، وأتمنى منك أن تحمله معك إلى ساحل زنجبار، أو تتوصى به مع أحد من رفاقك النواخذة الذين يبحرون قريبا إلى هناك، توصى به خيرا عني ومني، ولك من الله خير الجزاء .

محبكم ومخلصكم : إبراهيم بن حريمل الشباصي .

سمع حميد الصابر وعامر بن البدوية بنية ذهاب سليمان ود الصايغ إلى مطرح، فذهبا إليه وأخبراه بأنهما سيرافقانه في سفره .

الصابر وابن البدوية من حارة الموز، الحارة التي تقع طرف القرية في انحدار الوادي، أو كما يطلق عليها أهالي القرية الحارة الحدريّة، والتي يسكنها بعض من قبيلة الشبابيص وبعض من قبيلة الهنادب، الذي كان ابن الصابر منهم، أما ابن البدوية فلا يعرف إلا بهذا الاسم، لأن أمه حمده البدوية جاءت على ناقتها منذ زمن واستقرت بالقرية في حارة الموز، هناك نصبت خيمة صغيرة بعد أن ربطت ناقتها في جذع سمرة مجاورة .

بفضول اقترب منها القرويون، سألتها النساء من أين جاءت وأين مقصدها، كانت ترد عليهم ردودا مختصرة، مسافرة .. يايه أدور رزق .. الأرض والبشر لله ..، هكذا لم يعرف قصتها أحد، ثم صارت حمدة البدوية من أهالي القرية .

كان طفلها رضيعا عندما وصلت إلى القرية، لم تتحدث عنه ولا عن أبيه، وكلما تلقت سؤالا عنه فأما أن تجيب باختصار غير مفهوم أو أن تسكت وتغير الموضوع .

عرف الناس حمدة البدوية، حمدة الجريئة التي كان الرجال يهابونها قبل النساء، عيونها الكبيرة ووجهها المدوّر وصوتها الأقرب إلى الخشونة، ونظرتها القوية التي تجعل شيئا من الخوف ينبت في قلب من تنظر مباشرة إلى عينيه، فوق هذا كانت حمدة جميلة، تلك المرأة ذات الطول الفارع والجسم الممتلئ، ذات العينين الواسعتين والشفاه الصغيرة الرقيقة .

في ذات الخيمة مرّ الزمن بعامر الطفل، ابن البدوية، كما أطلق عليه الناس وكما تعارف عليه، أخذ كثيرا من صفات والدته، حتى الجرأة مذ كان صغيرا، وكان يهابه الأطفال مخافة من غضب ولسان والدته أيضا، لكن عامر كان طفلا لطيفا، لم يسمع عنه أنه تسبب بأذية أحد من جيرانه أو أبناء حارته .

من طرف الحارة القصيّ، كان حميد ابن الصابر الهندبي يجيء مع والدته سليمة بنت عمران عندما كانت تزور حمدة البدوية، وكانت البدوية تأخذ طفلها عامر إلى حيث تسكن سليمة، حيث كان بيتها تحت النخيل والذي تحيط به مجموعة من أشجار الليمون والأمبا، مما جعل المكان كثيفا بالظل وهادئا.

يحب ابن البدوية أن يجلس في ذلك المكان مع صديقه ابن الصابر، وكان يناشد أمه أحيانا أن تقضي نهارها هناك، بل كانت سليمة بنت عمران تناشد البدوية أن تجلس نهارها معها، فتجلس، لا تمانع، كان كل منهما تحب الأخرى، فكبر حميد الصابر وابن البدوية معا .

بعد ذلك بسنوات لا يعرف احد ما الذي حدث بالضبط، لكن ذلك المساء الذي بدأت فيه سليمة بنت عمران في الضحك

أحيانا وفي البكاء والصراخ أحيانا أخرى، ذلك المساء الذي تتذكره جاراتها وحمدة البدوية التي جاءت لتكون بقربها، منذ تلك اللحظات فقدت سليمة عقلها تماما، ويئس الجميع من معالجتها مستعينين بالبصّارين والسحرة ومعلمي القرآن، فقدت عقلها تماما وبدأت تجوب طرقات القرية بشعرها المنكوش وحكاياتها التي لا يصدقها العقل.

حكت سليمة بنت عمران، سليمة المجنونة كما سمّاها أهالي القرية، أنها في ذلك الصباح ذهبت لجزّ الحشائش من أعالي جبل الشوع، هناك حيث هبطت من السماء غرفة رمادية يخرج الدخان من أسفلها، كان لها هزيز تساقطت الحجارة متدحرجة من شدته، وعندما اقتربت من الأرض اختفت في دوامة كبيرة من الغبار، أو كما تقول سليمة بنت عمران كما هبيبو الجنّ، تقول سليمة، خفت، كنت شاله فوق راسي ربطة حشيش، عقيتبها، وركضت أطلع الجبل، واندسيت عنهم ورا حصاة كبيرة، كنت أشوف الغرفة يخرج منها رجال واجد، الين انترس المكان، وأنا مسيكينة ورا الحصاة قاطعة نسخي، وما رايمة أتحرك ولا أقوم من مكاني، وفيي رعشة أكني سيف العازي.

تخبر سليمة بنت عمران، أن حجرا صغيرا سقط من مكانه بالقرب منها، مما دلّ الرجال عليها، فطوقوا المكان ثم عثروا عليها وهي ترتعش من الخوف، أخذوها بالقرب من الغرفة وتحلقوا حولها وبدأوا يتفحصونها ويتكلمون بلغة لا تفهمها، كانوا يتفحصون كل موضع في جسدها ويهزون رؤوسهم، تركوها بعد ذلك ثم دخلوا غرفتهم وارتفعوا إلى السماء.

تحكي سليمة حكايتها لكل من يقابلها في طرقات القرية ويستوقفها ليتحدث معها، النساء يبصقن يمينا وشمالا ويتعوذن بالله من شرور الجن والسحرة، أما الرجال فبعضهم يستمتع بحكايتها وبعذابها ويضحك، البعض بات يسخر من سليمة المجنونة، والأطفال يمشون خلفها وهم ينشدون ويصفقون، يو سليمة يو مجنونة، هين شلّو مخّش عنّش ... حتى يجيء من ينهرهم ويطردهم من المكان.

بدأ الأطفال في مضايقة حميد ود الصابر، كان بعضهم يناديه عندما يمر بالقرب منهم وهم في بيوتهم بابن المجنونة، أو ود سليموه، قال له أحدهم، أمك مجنونة وما فيها مخ، شلّوه الجنّ، وانته من تكبر بيشلوا مخك.

احتضنت البدوية حميد الصابر وربته في بيتها ، وكانت تعتني بسليمة وتبحث عنها في القرية .

ماتت سليمة بنت عمران، وجدها أحد أهالي القرية طافية في بئر تقع وسط القرية ، أخذتها البدوية من بين الناس الذين تحلقوا حولها ، لفّت عليها شالا أحضرته معها ، ثم ألقتها على كتفها وذهبت مسرعة ناحية البيت .

كان الأطفال يتهيبون أن يزعجوا حميد الصابر بكلامهم عندما يكون برفقة ابن البدوية ، يخافون الآخر مخافة أهلهم من أمه .

تربى الاثنان معا ، وكبرا معا ، وفي مدرسة القرآن عند الشيخ إبراهيم يعرف أطفال القرية بعضهم بعضا ، ومن هناك عرف ابن البدوية وابن الصابر كلا من سليمان ود الصايغ ومذخور خادم المعلم .

في مدرسة القرآن، كان الوقت يمضي في تعلم الجميع لكتاب اللّه وحفظه، يبدأ الشيخ إبراهيم في تحفيظ الطفل الحروف بادئ الأمر، ثم يحفظه قصار السور مبتدئا من الفاتحة ثم سورة الناس، ثم يتتبع مع السور حتى يحفظ معه جزئي عمّ وتبارك، ثم يقفز به ليقرأ معه القرآن من بداية سورة البقرة حتى يختم القرآن بأجزاءه، وكان لا يعطي أحدا سورة أو آية

جديدة حتى يتأكد من حفظه أو قراءته قراءة صحيحة لما تعلمه من قبل .

في بعض الأحيان، يطلب الشيخ إبراهيم من الجميع غلق مصاحفهم والانصات إليه، يفتح كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ثم يبدأ في قراءة صفحات من الكتاب، ويعود لشرح ما قرأه بطريقة مبسطة ليستوعب طلابه الصغار ما يحتويه ذلك الكتاب الذي سطر فيه مؤلفه تاريخ عمان منذ القدم.

استوعب سليمان كثيرا مما سمعه من الشيخ، فهم قصة دخول محمد بن بور وما فعله في عمان، وأيضا من أين جاءت فكرة الهناوية والغافرية وسببها وسرّ بقائها حتى الآن .

يحب سليمان حديث الشيخ ويود أن لا يتوقف، يود أن تطول الحكاية، كانت الحكايات تأخذه للبعيد عن أطراف القرية .

أحيانا يطلب الشيخ من احد تلامذته الكبار أن يقرأ عنه من كتاب تحفة الأعيان، فيكمل التلميذ من حيث انتهى معلمه، وبين كل فقرة وأخرى يطلب منه التوقف ثم يشرح للبقية .

يختار الشيخ من تلامذته من يدرك فطنتهم وذكائهم وسرعة تعلمهم ليقوموا بالمهمة بدلا عنه، ولقد أعطى الفرصة لسليمان ابن الصايغ أكثر من مرة مهمة القراءة .

تلك اللحظات التي يشعر فيها سليمان بتميزه عن باقي الطلبه، عندما يبدأ في تقليد الشيخ عند قراءته، فسليمان يقرأ الكتاب محاولا تطبيق أحكام النحو التي تعلمها، كان لا يخطئ إلا نادرا، وكان الشيخ يحفز الآخرين في القراءة مشيرا إلى سليمان، ويقول لهم :

- أباكم تقريوا كذاك .

قبيل الفجر، خرج الرفاق من قريتهم، شيعت شريفة ولدها حتى آخر الحارة، وصته كثيرا أن يحتاط لنفسه، قالت له :

- ما تتأخر واجد، بشتاقك واموت .

ماتت شريفة قبل أن يعود ابن الصايغ من سفره، بعد أعوام من الوحدة، مرضت ولم تلبث إلا قليلا، أغلق باب بيت الصائغ ولم يفتحه أحد، كانت تهذي في مرضها بأسماء من رحلوا عنها، زوجها الأول وابن الصائغ وزوجته، وتهذي أكثر بسليمان، ولدها الوحيد، انتظرته، انتظرت رسالة منه مع القادمين إلى القرية، انتظرت خبره، تمنت أن تحتضنه قبل أن تفارق الحياة، تمنت كثيرا رؤيته، أن تتلمس بيديها وجهه،

لكن المرض أغرى الموت بالمجيء سريعا، فارقت الحياة، ورحلت بعيدا عن القرية، ربما هي الآن ترحل لتبحث عنه في الأمكنة متحررة من جسدها الضعيف.

كان دأبها الخروج كل يوم مع شياهها إلى التلال التي تحيط بجبل القرن، تجلس هناك تحت ظل إحدى الأشجار أو الحجارة الكبيرة، ترقب الطريق القادم المنحدر من جبل القرن، بينما تسرح الشياه في القرب، باحثة عن الأعواد الخضراء القليلة في الأعشاب الجبلية، وهناك كانت تنهمك في صنع قميص من الصوف، لتعطيه سليمان حين عودته من سفره.

يذكر بعض القرويون شريفة، الشاوية التي تركت حياة الجبال والرعي والتنقل من مكان إلى آخر، الشاوية التي استغنت عن حياة التوغل في مجاهيل الحجر والبحث عن الماء والمرعى، التي سكنت القرية، والتي لم تخرج منها أبدا إلا مع أغنامها على التلال القريبة، كان بعضهم يذكر صوتها الجميل وهي ترعى أغنامها، صوتها الذي تحمله الجبال إلى التخوم، تعويباتها وهي تنسج من خيوط الصوف الذي اجتزته من شياهها، تعويباتها وهي تتردد طيلة النهار، ليسمعها القاصي والداني.

لم تخرج شريفة من القرية، لم تغير عاداتها، اكتفت أن تخرج في عزلتها كل يوم، تجلس هناك، تغني التعويبة تلو الأخرى، تعويبات يمزقن القلب، تعويبات عن فراق الأحبة وعن الانتظار الطويل .

ينتبه أهالي القرية كل يوم على صوتها مبكرا يأتي، معلنا بداية نهار جديد، ثم لا يتوقف إلا قبيل الغروب، في الوقت الذي تعود شريفة بأغنامها إلى البيت .

لجبال العسبق المتلاحمة مع بعضها، تلك الميزة الجميلة، فهي تتشكل أقواسا من السفوح تبدأ من على ضفاف الوديان في القرية ثم تمتد متداخلة مع بعضها إلى أمكنة بعيدة، متفرعة منها الشراج والوديان الكبيرة، وكانت الميزة هي تردد الصدى بين سفوحها ليصل إلى نقاط أبعد وأبعد .

يستخدم أهالي قرية العسبق صدى الجبال ليتواصلون مع بعضهم، فمن السهولة جدا أن ينادي أحدهم صاحبه الذي في أطراف القرية ليخبره عن حاجته، فعُرف عن قرية العسبق أن لا أسرار فيها، فالجبال كفيلة بنشر كل حديث ليسمعه الجميع، أو هكذا كان يظن أهالي العسبق .

حتى تجتاز الطريق لا بد لك أن تصعد جبل القرن الذي نبتت القرية في إحدى تلاله المتناثرة، تلك التلال الصغيرة والملونة

بـالأحمر تـارة وبـالأزرق أو الأسـود تـارة أخـرى، وذلـك الطريـق المخطوط بـين الـصخور بلونـه المختلـف عـن لـون الأرض مـن حولـه قد نحتته الأقدام منذ الأزل، يراه الـصاعد فيقتفـي أثـره، طريـق ملتوٍ يمـر علـى الـصخور العظيمـة أو تحـت الأشـجار ثـم يتخطاهـا إلى الجهة الأخرى لتلة أخرى وهكـذا حتى يصل إلى القمة .

خرجـوا مـن القريـة قبيـل الفجـر، وفي الطريـق الـصاعد إلى الأعلـى كـان وعـل جبـل الـشوع هنـاك في القمـة يرقـب رحلـتهم، رفع سليمان رأسه فرآه هناك، توقف عن الصعود قال لأصحابه: الوعل يشوف علينا .. رفع البقيـة رؤوسـهم ناحيتـه، لم يعلـق أحـد على سليمان، نظروا إليه قليلا لكن ابن البدوية كـان أول مـن تحـرك متابعـا صـعوده، وضـع مـذخور يـده علـى كتـف سـليمان قائلا له : هيا، الشمس بتلحقنا، أحسن نطلع .

القرية مـن القمـة تـشبه بقـع الطحالـب علـى صـخور الـوادي، هنـاك حيـث توقـف الجميـع ليـستريحوا مـن رحلـة الـصعود الـتي أخذت كل أنفاسهم وجفت حلوقهم من العطش .

كـان الوقت قائظا ، في الـصباح تـصاحبك النـسمات البـاردة وأنت تمـشي، حتـى إذا سـطعت الـشمس، تكـون الرحلـة قاسـية مع حرارة الشمس ومع اللهاث .

وصلوا إلى القمة، خيّم الصمت على الجميع، الكل سارح في أفكاره وخيالاته، جلسوا متكئين على الحجارة وهم يرقبون القرية من فوق، راقب سليمان التلال التي كان يراها في الحلم، كانت التفاصيل تشبه ما حلم به، التلال والدرب الذي خطته الأقدام، بحث عن بيته ثم وجده مستعينا بالسدرة الكبيرة التي احتلت المكان، رأى الوديان وهي تشق الأرض والمرتفعات الصخرية ذاهبة في التواءاتها، رأى جبل الشوع الواقف بغموضه وعنفوانه، أصغى للصدى وهو يحمل بعض الأصوات التي تصدح هنا وهناك في القرية، أغمض عينيه ثم سرى الهمس مترددا في داخله، كان يسمعه مترددا وكأنه احتل المكان كله .

في القمة قام الأصدقاء باشعال النار، عمل مذخور الموقد من ثلاث حجرات متقابلة ووضع دلة القهوة فوقها، أحضر ابن البدوية بعض الأغصان اليابسة المتكسرة هنا وهناك ووضعها في الموقد، اشتعلت النار، وبعد قليل فاحت رائحة القهوة في المكان، كانت تنتشر في الذاكرة كما تنتشر في الهواء، سوف يتذكر الرفاق جميعا تلك اللحظة الفارقة من حياتهم، سوف تعود إليهم بعد ذلك على شكل لمحة أو حلم، ومع أول رشفة قهوة، كانت القرية في قلوبهم جميعا وهم يرونها كمن ينظر إلى نفسه خارجا من ذاته .

أكلوا التمر ثم شربوا قهوتهم وسفحوا ما بقي منها على الموقد ، جمعوا أشياءهم الصغيرة ثم مضوا في طريق هبوطهم إلى الجهة الأخرى، مخلفين القرية وراءهم وهي تتلاشى شيئا فشيئا ، غابت القرية خلف الجبال، غاب أهلها وضجيجهم، غابت الحياة برمتها فلا يسمعون سوى لهاثهم وهم يصعدون من قمة إلى أخرى، أو أصوات خطواتهم وهي تقطع الدرب الجبلي متحذرين من الانزلاق، متتبعين كل أحجار الدرب المصفوفة فوق بعضها دليلا ، و كما وصف لهم أحد الذين يعرفون الدرب أية جهة ستقودهم إلى بغيتهم .

قطعوا مسافة طويلة متتبعين الطريق، تعبت أقدامهم من المشي، وجفت القرب التي حملوها على ظهورهم ولم يجدوا ماء، كاد حميد الصابر أن يسقط حين تعثر بحجر على الأرض، كاد ان يغيب عن الوعي من شدة الحر والعطش، وبعد جهد وصلوا إلى نبع بارد يتدفق من صخرة ويتجمع في بركة عميقة ، قفزوا فيها بملابسهم، شربوا واغتسلوا وعادت لهم أرواحهم التي كادت أن تخرج في الطريق .

باتوا أربع ليال كان أسوأها تلك الليلة التي هاجمت فيها قبيلة الرشاش قرية كانوا قد ناموا على مشارفها ، تسكنها قبيلة الضعون، سمعوا صراخ النساء والأطفال ورأوا النيران وهي

تأكل البيوت والأشجار، سمعوا طلقات البنادق تأتي من وسط القرية، ليلتها جمعوا أمتعتهم مسرعين وتسللوا مندسين يرقبون ما يحل بالقرية من البعيد .

همس ابن البدوية لرفاقه : هذيلاء لهناوية، التفتوا ناحيته بوجوه مذعورة، وهم يدركون ماذا تعني كلمة هناويّة لهم كشباب ينتمون إلى التحالف الغافري .

أيش نسوي ؟ أخاف يعرفوا مكاننا، همس ابن الصابر، أشار مذخور للجميع بأن يهدأوا .

التصق الرفاق بجسد الجبل وهم يرقبون ما يحل بالقرية، كان الكهف الذي اختاروه ليتواروا فيه ضيق المدخل ولكنه متسعٌ من الداخل، تحسس مذخور المكان وهو يستكشف الأخطار التي قد تفاجئهم، بدا هادئا لأنه وجد المكان نظيفا، حيث لا عقارب بين الجنبات ولا شقوق كثيرة بالداخل قد تأوي إليها الأفاعي، تمنى في تلك الساعة أن ينقش شيئا ما على سطح الكهف، لكنه طرد الفكرة بعيدا، نظر إلى سليمان وهو يراقب ما يحدث بصمت، بينما كان الصديقان الآخران يتهامسان عن الهناوية والغافرية .

خفت الصراخ في الساعات الآخيرة من الليل، بدا المكان هادئا وكئيبا على ضوء النجوم التي تضيء المكان، كانت

ليلة صافية جدا ، إلا أن الدخان عمّ المكان بكثافته وتسلق القمم المحيطة بروائح الحريق .

وعلى ضوء تلك النجوم أيضا شاهدوا أشباح القتلة وهم ينسلون من جوانب القرية الصغيرة، الذين صعدوا الجبال جنوبا ، محملين بما نهبوه من أمتعة ضحاياهم .

هبطوا إلى القرية في الصباح، الدخان يملأ المكان، يندلع من نوافذ البيوت الطينية ، أو يخرج بحياء من بقايا بيوت السعف التي أصبحت رمادا ، جثث الموتى في كل مكان، وبعض الأنين هنا أو هناك، مما جعل مذخور يتقيأ مما رآه، بكى حميد الصابر واختنق ابن البدوية بعد ما اصابته نوبة سعال كبيرة، كان سليمان ينظر في كل مكان كالمبهوت أو كالذي يرى كابوسا في منامه ولا يستطيع الخروج منه، كل شيء في القرية تحول إلى رماد ، الدمار في كل مكان، كان الأصدقاء يقطعون القرية بحذر صامتين .

أمسكت يد برجل مذخور حين كان يتخطى الجثث خارجا من المكان، وقف ونظر مفزوعا ، كان شيخ كبير في السن يهمس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، جلس مذخور واقترب من رأس الرجل، حاول أن يسمع ما يود أن يخبره به، رآى جفاف شفاهه وعتامة عينيه فأيقن بأنه يريد أن يشرب، ركض بإناء

خزيف مكسور وملأ بعضه بالماء ثم عاد ليبلل فم العجوز، تجرع الشيخ القطرات وزفر من داخله، شعر بالحياة تعود إليه قليلا، كانت اللحظات الأخيرة التي يشعر فيها المرء بلذة الحياة وكأنها مديدة ولا نهائية، أشار الشيخ إلى جهة الشرق، وقال :

ـ البحر، البحر.

قالها ولفظ نفسه الأخير، سقطت يده على الأرض، غارت عيناه أكثر، صارت أكثر بياضا، ولفظ أنفاسه الأخيرة.

البحر، البحر، هو يعرف البحر، ركبه في سفينة التاجر الذي خدعه، لكنه ركب البحر داخل مخزن السفينة، لم يشعر سوى بالاهتزازات وبالدوار، ما الذي قصده ذلك الشيخ ؟ هل كان يحمله رسالة ما ؟ كيف عرف أنه يود أن يقطع البحر ليصل إلى بلاده، هل الجهة التي أشار إليها خلفها يكون البحر؟، لم يخبر مذخور أصدقاءه بما حدث معه، قابلهم في وسط القرية وخرجوا منها متعبين مما شاهدوا، مشوا صامتين وهم يتلفتون بين الفينة والأخرى خلفهم خوفا أن يباغتهم الموت المنتشر في كل أرجاء القرية .

صعدوا قمة طويلة، ثم هبطوا بعدها ليصعدوا قمة أخرى أطول، وهناك حيث جلسوا ليستريحوا من عناء المشي، هناك في شق صغير تحت القمة مباشرة، كان ينبوع الماء يسيل عذوبة وبرودة، ويتجمع في حوض صخريّ عميق .

شرب الرفاق من ماء الحوض البارد ، وعند آخر فنجان من القهوة قفز ابن البدوية إلى وسط الحوض وهو يصرخ برفاقه من برودة الماء، كانت النسمات الباردة على القمة تخدر الجميع، لذلك قرروا البيات بالقرب من ذلك الينبوع .

على السفوح القريبة من مبيتهم كانت أغصان الزعتر تتدلى ناعمة ، وكلما مرت النسمات عليها أحدثت وسوسة خفيفة ، اقترب سليمان منها ، أغراه منظرها ، مرر يده على أوراق الزعتر، طفحت الرائحة آخذة بأنفه ، عرفها ، نظر صوب رفاقه وصرخ عليهم، كانت المرّة الأولى التي يرى تلك الشجرة التي لا تنبت إلا على القمم الشاهقة .

عندما اجتازوا القمة في صبيحة اليوم التالي، منحدرين صوب التلال التي ستفضي بهم إلى أرض منبسطة تتخطاها قوافل الراحلين إلى مطرح، هناك من على القمة كانت زرقة البحر البعيدة تلتقي مع السماء . وقف سليمان يرقب المشهد الأزرق وهو يتوقع أنّ السماء قد نزلت من الجانب الآخر، تخطاه أصحابه هابطين صوب التلال، ثم لحق بهم متذمرا من استعجالهم في المضي بلا تعب ولا ينشدون الراحة ، لكنهم ظلوا صامتين وهم ينزلون من تلك القمة العالية ، قافزين من صخرة إلى أخرى، باحثين بين الأشجار الخضراء عن بعض الماء ليبللوا به حلوقهم .

الوعل كان يرعى في إحدى القمم المطلة على البحر، وكان الرفاق يجتازون البوابة عند السد، أدخلهم الحارس بعد أن فتش حقائبهم، لم يكونوا يحملون معهم إلا بعض الزاد، لذلك لم يطلب منهم ضريبة، لكنه قال لهم، لما تجيوا المرة الجاي بيكون معكم شيء آخذه عنكم .. كان وجهه جامدا، سمعوا عن حراس بوابة السدّ وعن الضرائب التي يأخذونها من المسافرين القادمين ليبيعوا بعض حاجياتهم في السوق، والتي كانوا يطلقون عليها العشور .

عندما وصل سليمان مع رفاقه إلى الساحل، اكتشف أن مطرح لم تكن إلا قرية أخرى مثل القرى التي مرّ عليها، لم يميزها إلا ذلك الازدحام البشريّ من الذين أتوا بحثا عن أسباب المعيشة، سأل مذخور عن النوخذة ليعطيه الرسالة، بحث هو ورفاقه عنه وسألوا كل من صادفهم، كانوا يدلونهم على مكانه حتى وصلوا إليه، طرقوا باب البيت فخرج صبيّ في الثامنة من العمر، سألوه عن النوخذة فأغلق الباب وركض يصرخ داخلا على أبيه، وما هي إلا لحظات حتى خرج عليهم النوخذة بإزاره الأزرق وبقميص قد تمزقت أكمامه وبانت كأنها حفر متناثرة هنا وهناك، كان النوخذة رجلا أسمر ذا نظرة حادة وحاجبين معقودين، بينهما تنعقد التواءة بسيطة

كعقدة حبل صغير، رسمت شيئا من الجمال على جبينه، أعطاه مذخور الرسالة التي فتحها مباشرة، قرأها وابتسامة خفيفة ترتسم بين شفتيه .

أفسح لهم النوخذة مكانا في المجلس ليستريحوا حتى صبيحة اليوم التالي . خرجوا إلى المدينة يبحثون عمن يدلهم على عمل مؤقت يتكسبون منه . ذهبوا إلى الساحل حيث الباعة يعرضون بضاعتهم، وهناك وجد حميد الصابر عملا له، وافق أن يعمل حمّالا لأحد التجار الهنود الذين سكنوا مطرح منذ سنين واستوطنوا فيها، وافق حميد الصابر على العمل مباشرة، خطط في قرارة نفسه لشيء ما، كان يقول سأعمل أي شيء الآن حتى يكون لدي ما أرتزق به، ثم أنتظر الفرصة السانحة، أي فرصة سانحة ينتظر حميد الصابر ؟ لا أحد يدري، سوف يصبر حميد كثيرا حتى تأتيه تلك الفرصة التي لا أحد يدري متى تجيء .

في وسط السوق، عندما كان سليمان يمشي ساعة العصر، عندما بدأ الاكتظاظ يشتد شيئا فشيئا، لمح خيال فتاته، لمحها لبرهة، وهي تدخل إحدى سكك السوق، تسمر مكانه، كانت اللحظة كفيلة أن يراها جيدا، تشبهها كثيرا، ارتبك ولم يدرِ ماذا سيفعل . كان المارة يتخطونه وهو

واقف وسط الطريق مثل المبهوت، البعض يكزه ليمر، والبعض الآخر بدأ يتذمر، تقدم قليلا صوب البوابة، لكن قدميه حادتا به عن الدرب وأوصلتاه إلى مدخل السكة، دخلها ومشى في ممر معتم بعض الشيء، لم يكن أحد ما في ذلك الممر سواه، مشى طويلا حتى أفضى به إلى البحر ثانية، ترى أين ذهبت ؟ تسائل في نفسه والتفت يمينا وشمالا، ثمّ استدار إلى الخلف ونظر مرة أخرى إلى الممر الملتوي الذي جاء منه، كان الممر ساكنا وفارغا، ثمة وشوشة سمعها في الداخل لكن لم يهتم لها، عاد أدراجه حتى خرج من بوابة السوق متجها صوب مسكنه .

سمع سليمان أنّ مركبا قد رسا على شاطيء البحر، سوف يبحر متجها ناحية البحرين، طرأت في رأسه فكرة السفر بحرا، تحدث مع رفاقه وسألوا معا عن الكيفية، ذهبوا إلى مكتب التأشيرات، استخرج له جواز سفر بعد أن وجهه المسؤول بأن يذهب للمصور ويأتي من عنده بصورة له، كان المصوّر يدور في السوق بكاميرته وأدواته، بحثوا عنه وسألوا حتى وجدوه، أخبره بأمره، طلب منه المصور أن يجلس على مصطبة وضعت جنب جدار، كان أحيانا ينام عليها الحمّالون في وقت الظهيرة، طلب منه أن ينظر مباشرة الى عين الكاميرا،

وعندما بدا مستعدا لالتقاط صورته، ظهر نور قويّ أخذ ببصره، أخبره المصوّر أن ينتظر قليلا حتى يعطيه صورته، كانت المرة الأولى أيضا التي تلتقط له صورة، أمسكها بين يديه وهو في شدة النشوة، كان قد رأى صورا لأشخاص من القرية وأخرى تتبع أشخاصا كانوا يعتبرون من المهمين، لكنه لم يتوقع أن تكون له صورته، ذهب مباشرة إلى مكتب الجوازات استخرج له العامل وثيقة وذهب حيث ينتظر أصدقاؤه ليبلغهم بما حدث معه .

في اليوم التالي ذهب سليمان صوب المركب، كان شيء في داخله يجذبه للصعود إليه، راقبه من بعيد، النوارس على صاريته العالية، وثمة عمّال يصعدون وينزلون من عليه، اسند ظهره إلى جدار وجلس يرقب المشهد، كان قد حلم ليلة البارحة الفتاة وهي تتسلق درج المركب وتلوح له بيديها، كانت هناك، تتوسط المسافرين وتبتسم له، جلس مدة طويلة ثم قام من مكانه واختفى في الأزقة .

ودع سليمان أصدقاءه واتجه مسرعا حاملا حاجياته ناحية السفينة، أعطى للبحار الذي يقف على درج الصعود وثيقة السفر فأفسح له ليدخل، تجمع رفاقه قريبا على المرسى ولوحوا له، لوّح لهم تلويحة الوداع، وهو يدرك كما يدركون بأنها ربما

تكـون التلويحـة الأخـيرة والـوداع الأخـير، مـن يـدري، ربمـا سـيلتقون جميعـا مـرة أخـرى، ذات يـوم حينمـا سـتكون الحيـاة أجمل .

صعد السفينة .. دله أحد البحارة على المكان المخصص له، صعد مع من صعدوا وجلس مع المسافرين، مكتظا مع اجسادهم وروائحهم وأحلامهم، الكثير من الوجوه من حوله، رجـال مـن مختلـف الأعمـار، كـان الـصمت هـو الـذي يـسود المكان، بينما كان في داخله ضجيج كثير، بحث في جوانب المركب ربما يراها هناك جالسة في بقعة ما، العيون تتلصص عليـه، كـان الحـديث للعيـون فقـط، بينمـا صـمت الجميـع وعيونهم تنطق بكل ما يودون قوله للآخرين .

لمـاذا يـسافر الجميـع عـن عمـان ؟ لمـاذا يـترك الكـل أرضـه وأهلـه ووطنـه ليـذهب شمـالا ؟ مـاذا سـيجدون هنـاك، أحـب أن يستكشف الأمر، لم تكن تعنيه الحياة ورزقه بقدر ما استمع لنداء ما بداخله، أراد أن يرى العمانيين هناك، كيف يعيشون وماذا يفعلون .

تحركـت الـسفينة، بـدأ ضـجيج البحـارة وعملهم، راقـبهم وهـم يعملـون جيئـة وذهابـا علـى ظهـر الـسفينة، اسـتمع إلى صراخهم، اهتز جسد السفينة فاهتز قلبه من المفاجأة، ركب

البحر، هو الآن وحيد على ظهر هذه السفينة المكتظة لا يدري إلى أي وجهة ستأخذه، وأية أرض ستلتقيه، الأرض كلها لخالق الأرض قال لنفسه، حاول أن يتماسك حتى لا يميل يمنة ويسرة . شدّ من عضلاته وأمسك بيديه على اللوح الذي جلس عليه، نظر من حوله فإذا الوجوه ترسم ذات المشاعر، الكل ذاهب إلى المجهول، والكل يرى انشقاق المستقبل أمامه كمن يمشي في طريق مكسو بالضباب .

اصيب بدوار البحر، كان يشعر بالدوخة طوال الوقت، تقيأ كثيرا وسقط على وجهه كثيرا، قاوم قبلها ذلك الشعور حتى وصل إلى درجة أنه يود أن يقذف بجسده في الماء، شعر بجسد السفينة ضيقا، لكن عندما رأى بعض المسافرين وهم ينكفئون على حافة السفينة ملقين ما في بطونهم للبحر، عندما سمع أصواتهم غير المتناغمة وهم يتقيئون حمل جسده الثقيل جدا وهو يترنح حتى أمسك أخيرا بحافة السفينة، نصحه أحد البحارة أن يشرب قليلا من ماء البحر لأنه لا علاج للدوار إلا بذلك، عندها أخذ جرعة ورمى بها في جوفه، شعر بأن حلقه قد أصبح جافا ومتحجرا، شعر بالملوحة والمرارة وهي تسري في جسده، حاول أن يقذف ما في جوفه هذه المرة ولكن بلا فائدة .

استرخى في مكانه المخصص للنوم، وضع رأسه على أمتعته، شعر حينها بالعافية، أغمض عينيه ونام طويلا، لم يوقظه أحد من البحارة أو المسافرين، كان ذلك أحد قوانين البحر التي يلتزم بها الجميع .

عندما أفاق سليمان كانت الظلمة حالكة، شعر بالجوع ينخز معدته، نظر فيما حوله، كان الكل نياما، افترشوا أرض السفينة وغرقوا في أحلامهم، الأجساد تكتظ ببعضها، رأى ضوءاً خافتا في قمرة القيادة فاتجه ناحيته، حاذر أن لا يطأ في مشيته الأجساد التي تفترش الأرض، وعندما دخل إلى القمرة لاحظ أن رجلا بلحية بيضاء ينام على سرير، بينما هنالك شاب يمسك دفة السفينة .

أحس الشاب بدخول سليمان قمرة القيادة وسأله ما الذي يريده، فأخبره سليمان بأنه جائع وأنه كان يعاني من دوار البحر، عندها نظر الشاب في عينيّ سليمان، كانت ملامح الصدق تنبع من عينيه، رقّ لحالته وأغلق الدفة ثم ذهب إلى زاوية الغرفة وفتح صندوقا أخرج منه بعض الأكل وأعطاه لسليمان، أكل سليمان جميع ما في الإناء وشكر الشاب، حينها سأله عن عمله، فأخبره سليمان عن قصته كاملة، من أين جاء وإلى أين ينوي الذهاب، أخبره أنه مستعد لعمل أي شيء

يستطيع عمله لكسب قوت يومه، استيقظ الشيخ النائم على همس سليمان، نظر إليه بعينين محمرتين من النوم وهو يسأل البحَار : من هذا ؟ قال الشاب وهو يعرفهما إلى بعضهما :

ـ سليمان من بلاد العسبق .

قام الشيخ من مكانه وهو يرحب بسليمان : العسبق ؟ أعرفها زين، بلاد قديمة، ولها تاريخ .

ابتسم سليمان لكلام النوخذة وقال : تاريخ منازعات .

قال النوخذة : عمان يا ولدي أرض جميلة، أرض بكر وغنية بما أعطاها الله، لكن أهلها يقتلون بعضهم على اسم أطلقته القبائل على بعضها، ومقسمين بعمرهم هذا هناوي وهذا غافري .

أقترح النوخذة على سليمان أن يعمل معه لأنه يحتاج إلى بعض الرجال الأشداء، لكن سليمان لا يعرف شيئا عن أعمال البحر وعندما أخبره بذلك قال له :

ـ لا تخاف، بنعلمك كل شي .

خرج النوخذة من القمرة ومشى على حافة السفينة، نظر سليمان إلى الشاب البحّار، شكره على وجبة العشاء ثم خرج ليتخذ له مكانا بين المسافرين .

خرج سليمان من قمرة القيادة وهو يفكر هل عليه أن يوافق على العمل في سفينة النوخذة ؟ أم عليه أن ينتظر وصوله للبحرين ومن هناك سيقرر، ربما يجد عملا جيدا هناك، كان كل همه هو التحرر من الالتزامات، أحس بأنه في تلك الليلة المعتمة شبيهٌ بأحد طيور البحر المحلقة وهي تتجه صوب وجهاتها خلف الأفق ؟ لكنه في المقابل فكر كثيرا بأنه لو عمل فوق السفينة سيتنقل من مكان إلى آخر وسيرى كثيرا من بلدان العالم .

هو الوحيد بلا ولد ولا تلد ، كما يقول المثل، ترك موضوع عمله إلى أن يجلس مع النوخذه، عندها ذهب إلى مؤخرة السفينة وجلس هناك حتى أذن مؤذن السفينة لصلاة الفجر، قام من مكانه وصلى مع الجميع.

منذ البدء جلس قريبا من كومة الحبال، شيء ما شده أن يجلس بالقرب منها ، كان يرقب وجوه المسافرين ويستمع إلى نقاشاتهم وحكاياتهم أو يكون طيلة الوقت ممعناً النظر إلى كومة الحبال وإلى تفاصيلها ، حبال من الليف، حبال من القماش، حبال بمختلف الأحجام تتكوم بالقرب من بعضها ، تلتوي وتتداخل أحيانا في أحجام وأنواع أخرى .

كان سليمان إما أن يكون نظره في كومة الحبال أو في الأفق البحريّ، سارحا بفكره بعيدا حيث قريته التي غادرها، كانت الصور القديمة في الذاكرة تعرض أمامه كشريط متقطع ومتنوع، أحيانا يتذكر كلام والده، نحن يا ولدي قوم بحر، جار علينا الزمان بعد ما كنّا بحارة معروفين ولنا تجارتنا، هذي القرية يا ولدي ما حالنا، وانصحك لا تخلق مشكلة بينك وبين أهلها .

أبوه الحامل ذاكرة شتات قبيلته التي أصابها الطاعون كما يقال أو الحروب الأهلية أيضا كما يدعي البعض، عاش طوال حياته مسالما في قرية اعتبر نفسه غريبا فيها رغم تداخله مع أهلها ومصاهرتهم .

في اليوم التالي تحسنت حالته، دوار البحر لم يعاوده ولم يشعر بآلام في معدته، كان يجلس في مكانه عندما اقترب منه رجل في حوالي الأربعين من عمره وجلس بجانبه، تحدث معه عن البحر والسفر والمخاطر التي تواجه السفينة والركاب، من أعاصير وأمواج وحيتان وأسماك الجرجور القاتلة، ولكنه عندما سأله عن قبيلته، قام الرجل من مكانه مسرعا وغير موقع جلوسه بعيدا عن سليمان، الذي أبدى تعجبه من تصرفات الرجل .

وافق سليمان على العمل في السفينة، أخبره النوخذه بأن مكانه سوف يتغير إلى غرفة العمال، هنالك سيجد له سريرا مهيأ يقضي فيه وقت راحته، وأن له ثلاث وجبات كل يوم من مطبخ السفينة، علاوة على ذلك يمنح له ثلاث ألبسة مجهزة للبحارة وله أن يستبدلها كلما اهترأت أو تمزقت .

رحلتهم إلى الشمال كانت هادئة، لا رياح قوية ولا عواصف، أحيانا وعندما يجد متنفسا من الوقت يجلس بمفرده في مؤخرة السفينة، غارقا في فكره راحلا من زرقة البحر، يفكر في الأشياء كما تخطر له، متذكرا أصدقاءه الذين فرقتهم الرحلة، ترى ماذا حدث لهم ؟ أين هم الآن، ما الذي يفعلونه ؟ وأسئلة كثيرة تأتي وتذهب، حتى إذا تعب من مكانه قام وانضم مع رفاقه البحارة في موال جميل أو في لعبة يكسرون بها ميوعة الماء والوقت .

أحب السفينة والبحارة وتعاملهم الجميل معه، وأكثر ما أحبه هو ذلك الرجل العجوز الذي يجلس في المنتصف ويبدأ بسرد الحكايات، تعجب كثيرا من حكاياته التي لا تنتهي، فلا يكاد أن ينتهي من حكاية حتى يبدأ بحكاية أخرى، كان يحبك القصة بأسلوبه الذي يجعل الآخرين ينصتون له وهم يحذرون من أنفاسهم، الصمت والعيون المحدقة في ملامح العجوز، الآذان الصاغية التي تنتظر ما تؤول إليه الحكاية .

كانت كل حكاية من حكاياته بمثابة حياة وعبرة ترسخ في ذهن كل من يسمعها ، تعرف سليمان إلى العجوز وعرف عنه أشياء كثيرة، فهو من أصدقاء النوخذة والذي أحب السفر بحرا وعشق الترحال في الأمكنة ، زار كثيرا من بلدان العالم ، وأكتشف الحياة خلف البحار ، هو الذي نذر عمره كلها ليكون رحّالة ، كان يرحل مع السفن المتجهة إلى الهند أو جنوب أفريقيا ، ومن هناك ذهب إلى المغرب وإلى بلدان حوض البحر المتوسط ، ثم رحل ثانية إلى الصين وإلى كثير من بلدان الشرق الآسيوي ، والآن هو في ذات السفينة التي تقل سليمان إلى الشمال ، أقنع النوخذة بأنه يستطيع تلطيف الوقت وجمع الناس من حوله ، وسرد حكاياته العجيبة .

شبّ نزاع بين الركاب ، سببه التلاسن بين شخصين كل واحد كان يمجد قبيلته ويحط من شأن الآخر ، خرج المكبوت في النفوس ونسوا أنهم في وسط اللجة ، التقى الجمعان وبدؤوا في صراعهم ، ضربوا بعضا بالعصي وبالركل بالأرجل ، أصيب من أصيب ، كان هناك رجل طويل القامة ذو رأس كبير ، وبشرة وجهه يخالطها الاحمرار ، كان صامتا هادئا منفردا على جنب ، لا تعنيه كل تلك الصراعات التي أساسها التشاحنات القبلية ، اقترب منه أحدهم وسأله :

ـ أنت مع من ؟

فأجاب بكل هدوء :

ـ أنا ما مع حد .

فسأله ثانية وهو يلهث :

ـ أقصد هل أنت معنا والا مع خصومنا ؟

ـ لا معك ولا مع غيرك .

تعجب الرجل من إجابة الشخص، صرخ في الجميع ليلفت انتباههم، فتوقفوا عن الضرب، تحلقوا حوله، كان الرجل صامتا، ينظر إلى وجوه المسافرين ويبتسم لهم، سأله أكثر من شخص لينضم إليهم، وأخيرا أجاب :

- ليش أتصارع معكم، ما تعنيني مشاكلكم، وصراعاتكم،أنتو تزرعوا الحقد فيكم وانا ما عدو أحد .

نظر الجميع إلى بعضهم البعض، دخل كلامه في رؤوسهم، فنكسوها، قال أحدهم :

ـ هو معنا، نريدك معنا، انته رجل حكيم .

هزّ بعضهم رأسه موافقا على كلامه، لكن الآخرين أرادوه معهم أيضا، فبدأ النزاع مرة أخرى، نسوا الرجل في صمته وعادوا إلى خصومتهم، ضربوا بعضهم البعض، تأذى من تأذى، صرخ فيهم، فتوقفوا، قام من مكانه وقال لهم :

ـ أنا ما مع حد، لا تتخاصموا عليّ .

خرج من المكان، واتجه إلى جهة أخرى على ظهر السفينة .

الكثير من النزاعات كانت تحدث على ظهر السفينة، أحيانا كان لابد للنوخذة أن يتدخل في إخماد بعضها، خصوصا إذا وصل الأمر إلى حده الأقصى . كان الجميع يحترمه لأنه مالك السفينة ولأن القرار بيده ولأن السفينة ومن فيها تحت تصرفه، يدركون تماما أنه يستطيع عن طريق البحارة الذين معه أن يسجن في إحدى غرف السفينة من يراه متمردا، أو أن ينزله في أقرب مرفأ لو تطلب الأمر ذلك وإنهاء رحلته في ذلك المكان .

بالقرب من الرأس الشمالي لساحل عمان دوت طلقات أعيرة نارية متفرقة، كانت طلقات إنذار لرسوّ السفينة وتوقفها عن المضيّ، يدرك النوخذة وبحارته ما الذي سيحدث لو لم يستسلموا للوقوف، لذلك أمرهم بانزال الأشرعة سريعا وايقاف السفينة في أقرب نقطة، وما هي إلا لحظات حتى امتلأ المكان بالقوارب المحملة برجال يحملون البنادق ويصرخون على بعضهم، التفت القوارب بالسفينة ومُدّت الحبال وصعدوا إلى ظهرها، بينما كان البحارة والمسافرون ينظرون إلى الموقف وكأنهم ليسوا موجودين في ذات المكان، كانت قلوب البعض

تدق بشدة خوفا من المجهول الذي ينتظرهم بشراسته، يسمعون عن هذه القبائل التي تسرق وتنهب كل ما في السفن من بضائع، يسمعون عنهم أنهم قتلة ولا يعنيهم أن تبقى روح واحدة، بل كانوا يستمتعون بالقتل وبإلقاء الجثث في البحر طعاما لأسماك القرش، في حين يحتفلون بإطلاق الأعيرة النارية في الهواء ويصرخون بأعلى أصواتهم، كل ذلك سمعوه في قراهم من حكايات المسافرين العائدين أو المفقودين الذين قادتهم الأقدار للوقوع في أيدي هؤلاء الرجال .

أمر النوخذة الجميع بالصمت، أمرهم أن لا يحدقون إلى عيونهم وأن ينكسوا رؤوسهم . كان في السفينة بعض الأسلحة ولكن النوخذة رفض استخدام أي منها، فهو يعرف كيف سيعالج هذا الموقف كما عالجه من قبل . تحلق الرجال حول النوخذة والبحارة مشهرين أسلحتهم، تقدم رجل منهم وسأل عن وجهة السفينة، رد النوخذة على سؤاله :

ـ أنا النوخذة محفوظ بن عثمان، وهذا مركبي، واحنه رايحين البحرين، وعندي مسافرين .

ـ نزّل حمولتك كلها على الساحل، ولا تخلي أحد على المركب

قال له الرجل المسلح ذلك وأطلق عيارا ناريا في الهواء، هزّ النوخذة رأسه موافقا، أمر البحارة بإخلاء السفينة فورا. نزل الجميع بملابسهم، تاركين أشياءهم هناك تحرسها فرقة من الرجال ذوي الوجوه الجامدة، الكل كان خائفا من الموت، ترى هل ستكون النهاية هنا ؟ هل هذا ما خرجوا يبحثون عنه في هذا البحر، هل هذه ضريبة الوصول إلى الشمال ؟ لماذا لم يفكروا في الذهاب برا، لكن هل ستكون الطريق آمنة أيضا ؟ وهم يعلمون بأمر قطاع الطرق وانتشارهم في الأمكنة ؟

أطاع الجميع النوخذة ونكسوا رؤوسهم وخفضوا أبصارهم خوفا من لقاء المصير الذي سمعوا عنه، وقفوا هناك على الشاطيء، بينما كان الأطفال يتحلقون حولهم ويصرخون ؛ أطفال عراة إلا من قطعة صغيرة تغطي وسطهم . أطفال مغبرون بشعور مشعثة، وأقدام حافية، كانت عيونهم أشد بياضا من الحليب، بحدقات عسلية جميلة وصافية . ملامحهم تبعث على البهجة في القلب، وضحكاتهم مستهجنة، هؤلاء الشياطين الصغار، من أين أتوا ؟ من الذي تركهم في هذا المكان المقفر ؟ هل هم من الجنّ الذين يتوقعون مأدبة كبيرة مليئة بالدم ؟ أسئلة كثيرة تدورهنا وهناك ، البعض قرأ ما حفظه من آيات طمعا في النجاة، البعض استغفر ربه وتاب في قرارة نفسه عن

الذنوب الصغيرة التي ارتكبها ، البعض كان يرتجف في داخله . لكن سليمان كان هادئا وصامتا يفكر في أصدقائه، ترى أين أنت الآن يا مذخور ؟ ما الذي حدث معك ؟ هل سافرت إلى بلادك أم خان النوخذة الرسالة وباعك مرة أخرى ؟ ماذا لو كنت معي الآن، هل ستملك من أمرك شيئا حين يأخذك هؤلاء الشياطين ويلقوا بك في أقرب سوق ليبتاعك رجل آخر ؟ وما الذي يفعله حميد الصابر في هذه اللحظة، بكل تأكيد يفكر في كل قرش سيجنيه من عمله اليوميّ هو وابن البدويّة.

جاء شيخ كبير، ذو هيئة محترمة، كان يلبس عمامة بيضاء ناصعة البياض، ويتمنطق خنجره المعقوف في وسطه، بينما يمسك في يده اليمنى عصاه الغليظة المطعمة بالفضة، اقترب من الجميع، وما أن شاهد النوخذة حتى ضحك :

ـ كل مرة تنجو من الموت بأعجوبة يا محفوظ .

رفع النوخذة رأسه وهو يخاطب الشيخ :

ـ باغي ترمي رأسي للجرجور ؟ .

رد عليه الشيخ وهو يمازحه :

ـ ما اريد اسمم الجرجور يا النوخذة .

صرخ في وجهه وتغيرت لهجته، كان وجه النوخذة هادئا، فهو يعلم مع من يتحدث تماما، هذا الانسان الذي يتبدل مزاجه بين لحظة وأخرى هو شيخ هذه القبيلة التي تعيش على نهب السفن وبيعها للقبائل. مظهره الخارجي لا يدل على نواياه أبدا، لكن لأن بينهم عشرة طويلة وسيرة يعرف كل واحد منهما الآخر صارهناك احترام متبادل بينهما لذلك فهو يستطيع بطريقته التي مارسها أمام هذا الشيخ النجاة في كل مرة.

شيخ اللصوص هذا أو زعيم العصابة المسلحة المرابطة في ذلك المكان، يقال أنه قدم من شمال الجزيرة العربية، يحكى عنه أنه خرج من بلده هاربا من بطش المستعمرين، ويقال بأنه خرج هائما على وجهه فارا بروحه مما رآه من دمار أحاق ببلاده، كان فتى بسيطا ونبيها ترعرع في أسرة محافظة ومتدينة، تعلم كتاب الله وأصول الدين على يد أحد الفقهاء، حتى صار نابغة زمانه. لم يكن ليهتم بما يحدث من حوله للناس، بقدر ما كان مهتما بالكتب التي بحوزته، حتى صار مرجعا لكثير من الأمور الدينية في ذلك الوقت.

شيخ اللصوص هذا، لا يعرف اسمه الحقيقيّ، بعضهم يقول أنه توفيق، والبعض الآخر يقول أحمد، لكن هو هنا باسم عامر بن سيف، ربما قد اخترع هذا الاسم حتى لا يعرف مكانه.

طلبه المستعمرون من مكان إلى آخر، حتى باتوا مقتنعين في هلاكه، جاء إلى هنا وهو يدرك أن سفنهم تمر من هذه البقعة لكي تصل إلى العراق. أراد أن ينتقم منهم بطريقته. خطط في الليالي الحالكة حتى وصل إلى فكرة سرقة السفن وبيع امتعتها في أسواق الجزيرة العربية، متضامنا بذلك مع رؤوس القبائل التي تتمنى هلاك المستعمرين وانتهاء هيمنتهم على طريق التجارة البحرية .

كان رجلاً ذا منطق، لذلك استطاع أن يقنع الكثيرين من المتمردين بالدخول معه، هيمن على هذا الساحل وأعطى الأمان لسكانه وأخبرهم بمقصده، أكرم شيوخ القبائل بعطاياه من السفن التي استحوذ عليها، حتى باتت سلطته تفوق سيطرتهم على المكان، تقبلوه خوفا وطمعا وساعدوه كثيرا حتى بات يحكم المكان كاملا .

النظام الذي صنعه لا يشبه الأنظمة الفوضوية، بل بالعكس تماما، لقد أوجد نظاما محكما، لذلك كانت منطقته برغم سيطرته عليها بفريق من اللصوص كما يطلق عليهم المسافرون، كانت منطقة آمنة ومستقرة، ولم يكن يؤذي أحدا، كان همه أن يستفيد من مرور السفن في المكان، وأن تدفع كل سفينة أتاوة للدخول إلى الخليج، ومن هناك

يستطيع أن يراقب تحركات المستعمرين وهم يدخلون وبالتالي يستطيع مباغتتهم والقضاء عليهم والسيطرة على سفنهم وأسلحتهم وبضاعتهم .

كل سفينة تمرمن ذلك المكان تحيط بها مراكبه ورجاله ،فإما أن يستسلم من في السفينة وينزلوا إلى البر تاركينها له ولرجاله يقيمون البضائع ويدرسون كل شيء فيها وبالتالي على نوخذتها أن يدفع ما عليه للشيخ أو أن تدخل في صراع معهم وبالتالي مصيرها المؤكد رمي كل ما فيها من بشر إلى قاع البحر طعاما لأسماكه .

أمر الشيخ رجاله بالافراج عن الجميع، وطلب من النوخذة أن يدفع قيمة المرور من المكان، فدفعها لهم، لكن الشيخ أصرّ على أن تتوقف السفينة لمدة ثلاثة أيام في ضيافته، وأمر رجاله بإكرام المسافرين جميعا .

لازم سليمان النوخذة، طلب منه أن يكون معه، كان يعرفه على الناس، قال له بأن ذلك سينفعه في المستقبل عندما يمر من هذه البقعة، كانت الولائم تقام إكراما للنوخذة في بيوت الكثير من التجار وشيوخ القبائل، وكان النوخذة يتبسط مع الجميع ويضحك معهم ويتحدث بلغتهم بعض الأحيان .

في اليوم التالي، مرت سفينة أخرى بالقرب من الساحل، فحدث الاحتفال الكرنفاليّ الذي حدث مع سفينة النوخذة سابقا، دوت الطلقات النارية في الهواء وركب اللصوص مراكبهم وأحاطوا بالسفينة، لكن لأن نوخذة السفينة وبحارتها لم يكونوا مدركين لما يفعلوه، تبادلوا أطلاق النار على الرجال وهم يحيطون بهم، قتلوا بعضهم وجرحوا آخرين، حينها خرج فوج كبير هذه المرة باتجاه السفينة، أطلقوا النار عليها وصعدوا إلى ظهرها أخيرا، ومن هناك، من على الساحل، وقف الجميع ليشاهدوا نهاية الرحلة التي توقفت هناك، سمعوا صراخ المسافرين عندما تخترقهم الرصاصات، قتلوا كل من في السفينة وألقوا بهم إلى البحر، ثم جروها إلى الساحل، واحتلفوا بالظفر والنصر على طريقتهم، صرخوا وابتهجوا وهم يرقصون، جمعوا موتاهم على الساحل وحملوهم ليدفنوا في مقبرة قريبة، هنأ الشيخ الجميع على بسالتهم وأمرهم بجمع الأشياء الموجودة في السفينة وإحضارها إلى بيته .

ترى كم كان عدد المسافرين الذين لقوا حتفهم واكلهم البحر وحيتانه ؟ تسائل سليمان وهو ينظر إلى هيكل السفينة الجاثم على الساحل، الآن ظفر اللصوص بسفينة سوف تباع إلى أحد النواخذة الأغنياء، أو ربما سيستخدمها اللصوص في

حربهم الأبدية ضد من يعبرون هذا المكان، تخيل نفسه يركب السفينة الخطأ ويمر من هنا ، ثم يكون مصيره في بطن حوت عظيم يسكنه إلى الأبد ، هزّ رأسه ليطرد الفكرة، نظر من حوله، تأكد أن لا أحد ينظر إليه أو يقرأ أفكاره، واتجه مباشرة حيث يجلس النوخذة وجلس بجانبه صامتا .

شعر سليمان بأن حياته ستكون أجمل بالقرب من هذا النوخذة، وشعر بأن القدر قد ابتسم له منذ وصوله إلى مطرح وقراره بالسفر، أدرك أنْ ليس هنالك مجال للحظ ولكن كل شيء مكتوب للإنسان ومسطور في كتاب الغيب، وإلا لماذا اختاره النوخذة هو شخصيا؟ ولماذا يقربه على كثير من البحارة الأقدم منه ؟ أسئلة كثيرة جالت في خاطره، ولكنه بعثر كل شيء في البحر، قال لا مجال للوساوس، ليفعل الله ما يشاء، كلنا تحت رحمة الله سواء كنا في البرّ المليء باللصوص وقطاع الطرق والحروب القبلية، أم كنّا في البحر حيث الأخطار أعنف مما يتصوره العقل أبدا .

عندما قام الشيخ للصلاة وصلّوا خلفه أعجب سليمان بصوته وترتيله القرآني الجميل، كان صوته وطريقة قراءته في الصلاة مختلفة تماما عن شخصيته في الواقع، هنا تحس أنك مع رجل أكثر ورعا من أن يدوس نملة على الأرض، جعل صوت

الشيخ سليمان على حافة البكاء، لقد تعود على سماع القرويين وهم يتلون كتاب الله بطريقتهم الخالية من الترتيل وكأن أحداً ما يركض خلفهم .

استمتع كما لم يستمتع من قبل، اقتنع بأن ما يفعله الشيخ هو الصحيح، ربما هناك في القرآن ما يفهمه الشيخ أكثر منه ليأمره بفعل ما رآه، انجذب بكليته ليدخل في هذه الحياة، لا يدري كيف جاءه ذلك القرار المفاجىء ليترك نية السفر صوب البحرين ويصمم على أن يبقى في تلك البقعة، كل ذلك كان في تلك اللحظات القصيرة وقت الصلاة، حقا إنَّ هذا الشيخ ساحر عظيم وإلا كيف قدر على إقناعه دون أن يذكر له ذلك .

أخبر سليمان النوخذة بأمره، ولم يتعجب، قال له :

ـ كل مرة أخطف من هنا يتخلى عني شخص عزيز عليّ.

في اليوم الثالث خرجت مراكب كثيرة لتوديع السفينة حتى منتصف البحر، واطلقت أعيرة نارية في الهواء إكراما للنوخذة .

(3)

انتظر عبدالله زميله طارق على مدخل المدرسة، مساء البارحة قد طلب من أمه نقودا، سألته ما الذي يريد أن يشتريه، تحجج بأنه يود أن يشارك في رحلة جماعية من المدرسة، أعطته خمسة ريالات، طلب أكثر لكنها لم تعطه، تحسس الريالات، تأكد أنها موجودة، ثم جلس مستندا على جدار المدرسة .

كاد جرس المدرسة يرنّ معلنا بدء اليوم الدراسيّ، وطارق ما زال غائبا، تأخرت السيارة التي تحضر الطلبة من قريته حتى ذلك الوقت .

بدأ القلق ينهش عبدالله، فهو لا يريد أن يعلم أحد بنواياه، كتم السرّ عن أهله كما كتم السرّ عن الجميع، الشخص الوحيد الذي يعرف عن قرار مغامرته تلك هو صديقه سلمان .

قدما معا في الصباح الباكر، كان بالنسبة لهما مثل أي صباح، وهما ذاهبين إلى المدرسة، وبرغم إدراكهما بأنهما سيفترقان بعد قليل، وبرغم المسافة التي بدأت تخرج زوائدها في أعماقهما، كانا يتحدثان كأي صباح وهما واقفان بالقرب من بعضهما في السيارة البيك آب التي خصصت لنقل الطلبة للمدرسة .

عند البوابة وقف عبدالله منتظرا طارق، ووقف بجانبه سلمان، شعر عبدالله بالضيق لوجود سلمان بجانبه على تلك الحال، خاف أن يكتشف أمره، طلب منه أن يدخل إلى فناء المدرسة، سينتظر هناك وحيدا، لاحظ التردد والارتباك الذين ظهرا على وجه صديقه، قال له متأتئا :

ـ ليش ما باغني أجلس معك ؟

ـ مابا حد يعرف شي، بس انت روح، ونتلاقا من أرجع .

بكآبة نكس سلمان رأسه، وبحزن عميق في قلبه خطا أول خطواته ليدخل وحيدا إلى المدرسة .

ظل عبدالله عند البوابة، وقد نبتت شجرة القلق فوق رأسه وبدأت تتفرع وتظلل المكان .

وصلت السيارة التي تقل طارق وأهل قريته، وعندما نزل طارق رأى زميله واقفا مكتوف الأيدي، يتجاذبه التوتر والخوف، اقترب منه، بادر بالحديث مبتسما :

ـ سمحني تأخرت عليك .

ـ شوية وأدخل المدرسة .

ـ زين ما دخلت ؟

ـ ما أريد أدخل، خلاص احنه ما مال مدارس .

انسحبا من المكان، ذهبا إلى الطريق العام المؤدي إلى خارج القرية، والذي سيوصلهم أيضا إلى الطريق الرئيس الذاهب إلى بدبد، وقفا هناك على الشارع الترابيّ منتظرين أحد ما يقلهم في ذهابه، الشمس في نهاية شهر مارس تشرق معلنة ابتداء القيظ، الأجواء في الصباح الباكر لطيفة، لكن كلما طال النهار كلما ارتفعت درجات الحرارة واشتد الوهج .

مرّت سيارة بيك آب مسرعة، ذيل الغبار الذي تجره خلفها تتراقص فيه الذرات وهي تتصاعد إلى فوق، ثم تتناثر ببطيء على أطراف المكان، تنتشر سحابة الغبار فتغطي المشهد، رفعا

أيديهما مؤشرين للسائق بالوقوف ولكن السيارة واصلت سرعتها واختفت بين التواءات الطريق .

مرت سيارة أخرى، مرت سيارة ثانية وثالثة، وهما هناك، الشمس تصعد ناحية كبد السماء، والحرارة تشتد، والوهن واليأس يزحف بثقله عليهما، ثم تلمع نجمة الحظ في الأفق، تشرق شمس أخرى على البعيد، شمس تجر خلفها ذيلا من الأمل، تتهادى قادمة بهديرها الذي يملأ المكان ويتردد صداه حتى التخوم، شاحنة كبيرة تقترب منهما، كانا جالسين على قارعة الطريق، تعبا من الوقوف، فجلسا على الحصى، قام طارق بتثاقل وتبعه عبدالله، رفع يده واليأس قد بلغ مبلغه من نفسه، تقدمت الشاحنة قليلا، اجتازتهما وهي ذاهبة في طريقها، لم يوقفها السائق ولم يبطئ من سرعتها، عادا ليجلسا مرة أخرى فإذا بالشاحنة تتوقف فجأة على بعد مئة متر .

ضغط السائق على بوق السيارة، أخرج رأسه من النافذة الجانبية وهو يلوح لهما بيده، ناداهما، عادت الطاقة والحيوية إلى جسميهما وروحيهما، ركضا مسرعين ناحية الشاحنة خوفا من أن يتأخرا على السائق فيقرر الذهاب، اقتربا منه، فتح لهما الباب المقابل وصعدا ليركبا بجانبه، ركب طارق أولا ثم تبعه عبدالله وأغلق الباب، تحركت الشاحنة بهديرها تتهادى وهي

تجتاز الطريق بمطباته وصخوره وأتربته، نظر عبدالله إلى صورته في المرآة الجانبية، شاهد وجهه، كان وجها طويلا ومغبرا، ذرات الغبار تكدست على جانبي الرأس، وكأن شعر الشيب قد اعتراه فجأة، شاهد سحابة الغبار التي تتراقص وتنفجر خلف الشاحنة .

أخيرا تنفس الصديقان الصعداء وعادت لهما روحيهما، اطمأنت النفوس، ومع حركة الشاحنة وتأرجحها، بدأ النعاس يقترب من عينيّ عبدالله، وما هي إلا لحظات، حتى سقط رأسه متدليا على عنقه، غارقا في نومة عميقة برغم الضجيج والاهتزازات المتكررة .

لم يكن الوصول سهلا إلى مكان المعسكر، كانت الطريق طويلة، وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة أوقف السائق شاحنته وأبلغهما بأن عليه الانعطاف إلى وجهة أخرى، ثمّ دلهما على الطريق الصحيح للوصول إلى مبتغاهما .

الرحلة شاقة وطويلة، توقفا كثيرا، ركبا شتى أنواع السيارات التي كانت تتوقف لهما . وصلا بدبد في منتصف الليل، نزلا من السيارة وتوجها إلى القرية، دخلا أول مسجد صادفاه وناما فيه ليلتهما، وعند الفجر قاما وصلّيا مع أصحاب المكان، ثم ذهبا مباشرة صوب المعسكر .

الصباح في القرية يبدأ منذ بزوغ الفجر، القرويون يدركون ذلك تماما، لا احد ينام حتى ساعة متأخرة من الصباح، ولا يجوز للقرويّ النوم حتى شروق الشمس، حتى لا يمرّ به مقسّم الأرزاق فيتعداه ولا يعطه رزقه، هذا ما رسخ في أذهان الناس، وهذا ما تعلمه الكل، حاملين في نفوسهم تلك القيمة التي تحترم الاستيقاظ باكرا والسعي للبحث عن أي عمل .

ينفلق الصباح، فتولد الحياة من ذلك السبات العميق الذي أصابها بعد ظلمة الليل، تتفتح الزهور وتسرح أسراب العصافير بزقزقاتها، يخرج الرعاة بأغنامهم متجهين إلى الجبال حيث العشب والكلأ، حيث المياه العذبة والظلال الوارفة، وحيث الموسيقى تتشكل بمختلف تلك الأصوات التي تشكل مشهدية متناغمة، ينفلق الصباح فتنفلق من بين ثناياه الأحلام، حاملة دثارها متدفئة بالضياء الذي سيملأ العالم بعد قليل .

بدبد قرية تقع على ضفاف واد كبير تمتد أفرعه إلى القمم الشاهقة للجبل الأخضر في داخلية عمان، وفي بداية السبيعينات، انشيء معسكرا للجيش على أطراف القرية، هناك على مدخل بلدان المنطقة الداخلية، ثم بدأت أفواج كبيرة من الشباب يجيئون إليه، منتسبين إلى الخدمة العسكرية .

يقبع المعسكر على تلال صغيرة متناثرة من الجهة الشمالية للقرية، تطل تلك التلال على مزارع النخيل الممتدة شرقا وغربا على امتداد ضفاف الوادي، كان سياج المعسكر الذي يحيط بتلك المساحة الكبيرة يعطي خصوصية وسرية للمكان، ولا يسمح بالدخول إليه إلا بإذن مسبق، وهناك على المدخل، وقف بعض الجنود ببنادقهم مستعدين لأي أمر كان، يراقبون كل حركة وسكنة تدخل إلى الداخل .

وصل عبدالله وزميله طارق إلى معسكر الجيش، حشود الشباب تكتظ عند المكاتب الخشبية التي وضعت بالقرب من بوابة المعسكر، بعضهم يقف في طابور طويل، والبعض الآخر جلس على الأرض، جميعهم من نفس الأعمار، لا تتجاوز أعمارهم السادسة أو السابعة عشر، اقترب الأصدقاء من المكان، الحيرة تملأ وجوههم، لا يعرفون ما عليهم فعله، وقفوا بجوار الطابور الطويل وهم ينتظرون من يوجههم، وعندما لم يعرهم أحد انتباها، سأل عبدالله أحد الشباب الواقفين في الطابور عن الكيفية التي يستطيع أن يقدم فيها اسمه مع المسجلين، فقال له قف في هذا الطابور الطويل في الآخر وانتظر دورك .

لم يكن سالم ابن عم طارق قد وصل بعد ، لذلك وقف الإثنان في الطابور الطويل منتظرين الدور للدخول إلى تلك الغرف، كان على كل باب جنديٌّ ينظم الدخول ويصرخ على المجتمعين . أحيانا يدخل بعضهم في حوار مع الشباب الواقفين ثم يدخل رأسه من باب المكتب إلى الداخل، يبقى هكذا لفترة ثم يخرجه ليكمل حواره .

كان الجو معتدلا ، لم يشعر الواقفون بالتعب ولا بالعطش، وكانت نظرة عبدالله مرتكزة على الأبواب التي تفتح وتغلق .

بعد أن طال النهار واقتربت أبواب المكاتب منهما ، أو اقتربا وهما يخطوان ببطء، جاء سالم، صافحهما وطلب منهما الوقوف حتى يأتي الدور، دخل المكتب وجلس هناك .

دخل طارق في البداية ، جلس هنالك كثيرا ، طالت المدة على عبدالله وهو يترقب، الوقت يبدو ثقيلاً عليه وهو وحيدٌ واقفٌ في الشمس، بينما باب المكتب أمامه مباشرة ولا يفصله عنه إلا الدرج الخشبي الصغير والمغبرّ، نظر مليا إلى المكتب، الخشب مدهون بلون يشبه كثيرا لون التربة ، راقب تفاصيل المكتب ونسي نفسه في الشمس، سرح بفكره بعيدا ، ثم استيقظ على الجندي وهو ينادي باسمه: عبدالله بن سليمان ؟ وين عبدالله بن سليمان ؟

يتذكر عبدالله كيف أمره الطبيب بخلع ملابسه كاملة، وكيف أنه وقف هناك في تلك الغرفة الضيقة وحيدا مع الطبيب وهو عار تماما، جس الطبيب بسماعته صدره، وتفحص جسده من أعلى إلى أسفل، تحدث معه وسأله بعض الأسئلة .

تمنى عبدالله أن تنتهي تلك اللحظات بسرعة، شعر أنّ الزمن يأكله في غرفة الطبيب، أغمض عينيه ولأول مرة يرى صورة أبيه، رآه يرمقه بنظرة مريبة، شعر بالحرج والارتباك، فهو الذي كان يحذره ألا يجلس مع الغرباء وحيدا خوفا عليه وعلى ذكورته، فكيف به الآن وهو وحيد بين هذه الأربعة جدران مع انسان غريب .

في مساء ذلك اليوم والجميع ينتظر النتيجة ، نادى الضابط باسميهما مع المقبولين، كان هناك الكثيرون لم يسمعوا أسماءهم، خرجوا من محيط المعسكر تملؤهم الخيبة والإنكسار، كانوا يتكدسون جالسين تحت أشجار السمر المتناثرة هنا أو هناك على أرضية المعسكر بالقرب من مكتب التوظيف .

أكد لهم الضابط أن على كل واحد منهم أن يحضر رسالة من شيخ قبيلته أنه لا مانع من دخوله في سلك العسكرية، مع موافقة ولي الأمر سواء كان الأب أو غيره، وأن عليهم أن يحضروا لوازمهم المرة القادمة ليذهبوا بعدها

مباشرة إلى مركز التدريب .

عاد عبدالله وطارق والفرحة تملأهما ، عادا إلى قريتهما ، العودة متعبة أيضا وهما يتنقلان من سيارة إلى أخرى .

انتشر الخبر في القرية عن قبولهما في التوظيف العسكري ، نذرت أم طارق أنها سوف تذبح ثورا وتتصدق به على القرية كلها ، وسوف تقيم وجبة غداء للكل في اليوم الذي يستلم فيه ابنها راتبه الأول ، كانت فرحتها لا توصف ، تنقلت من بيت إلى بيت وهي تحمل البشارة بنفسها ، وكل من صادفها في الطريق حكت له عن ولدها ووظيفته .

أن تعمل يعني ذلك الكثير للقرويّ ، ويعني أيضا الخروج والذهاب بعيدا عن القرية .

عاد عبدالله إلى البيت ، استقبلته أمه بارتباك ملحوظ ، حاولت أن لا تنظر في عينيه مباشرة ، شعر بالتوتر ، حاولت أمه الصمت والانشغال في أعمال المنزل ، أخذت أواني المطبخ وجلست تفرك السواد العالق من جراء النار ، جلس بالقرب منها ، لكنها قامت من مكانها ، ذهبت إلى زريبة الأبقار ، تناولت حزمة من أعواد القت ورمت بها إلى داخل الزريبة ، شعر بهروبها ، ادرك بأنها ستنفجر في وجهه بعد قليل ، فهو يعرف أمه جيدا ، هو ابنها البكر ، يدرك مدى صمتها ، وإلى أين سينتهي .

ـ ماه أنا رحت أسجل في الجيش .

ـ ما يلك أم هنا تكلمها ، روح دور على أم غيرها .

ـ خير انشاالله ، مو سويت ؟

وكأنه فتح نافورة غضبها دفعة واحدة ، بدأت في نزاعها معه ، تكلمت عن عدم اكتراثه وعن قلة أدبه ، عن التربية التي منحتها إياه مع أبيه ومع المقابل الذي يواجههم به ، التقدير الذين كانا ينتظراه منه ، أن يسافر دون علمهما ودون إذنهما أيضا ، وأن يترك مدرسته التي كانت تأمل منه أن يستمر في تعلميه .

انفجرت في وجهه ، تحدثت كثيرا ، قالت كلاما كثيرا وبكت ، تمنى لو تسكت قليلا ، لو تعطه فرصة ليتكلم ، لكن هديرها كان يشبه هدير زوبعة تضرب بعنف على سفوح جبل الشوع .

هدأت قليلا ، مسحت دموعها بطرف لحافها وتمخطت ، توردت وجنتاها من أثر البكاء ، ظهرت أكثر جمالا ، جلس بالقرب منها وهو يتفقد في ملامحها صامتا ، نظرت إليه ، قالت له بهدوء أكثر وبحشرجة خفيفة ما زالت على صوتها من أثر البكاء والصراخ :

ـ أبوك زعلان ، كل بو سويته ما يغفر لك .

ـ بس أنا باغي اشتغل ، وأساعده .

ـ ما طلب مساعدتك ، والخير مكفي وموفي .

لم يدر عبدالله ماذا سيقول لأبيه، ادار الموضوع في رأسه كثيرا ولكن لم ير داعيا لزعله، إلا مسألة أنه خرج دون علمه فكان محقا، شعر بالحرج وبالخجل، وقرر أن يعتذر من أبيه عما بدر منه .

منذ السادسة من عمره لم يحتضن عبدالله والده ولم يقبل رأسه أو يديه، لم يكن متعودا على ذلك، ولم يكن لذلك داع من الأساس، فالقرويون لا يبدون محبتهم لبعضهم البعض سواء من قبل الآباء أو الأبناء، فالمحبة في القلوب وليست في الدروب كما جاء في المثل .

بحث عبدالله عن أبيه ووجده يمشي راجعا من الوادي، وقف أمامه وسلم عليه، بادله الأب السلام ببرود وواصل طريقه، تبعه عبدالله وهو يحدثه :

- باه أنا سجلت في الجيش، وقبلوني وباغيين منك رسالة من الشيخ بأنك راضي أروح اشتغل هناك .

- بس زين، نروح رباعه للشيخ ونخبره يكتب الرسالة .

لم يدخل سليمان في نقاش مع ولده عن المدرسة ولا عن قراره أو عن عدم استشارته في موضوع عمله، ولم يعتذر عبدالله عن ذلك، دخلا في حديث جانبي وبعيد عن أشياء أخرى وطمرا المسألة برمتها تحت مزارع النخيل .

(4)

في بلاد الشيخ عامر بن سيف، رأى الفتاة مرة أخرى، ، شاهدها على باب أحد البيوت، كان ذلك قبل غروب الشمس، هبت ريح خفيفة على وجهه، نسمات باردة شعر أنها تدخل في عظامه وتسري في مسامات جسده، ، ابتسمت له ابتسامة انخلع قلبه منها، شيء عجيب ما حدث له، سيتذكر تلك اللحظات حتى آخر يوم في حياته، بعثت في قلبه شيئا

يشبه الحزن وما هو بحزن، يشبه الغبطة وليس بغبطة، هو مزيج بين الفرح والكآبة، ما جعله بعد أيام يبكي بحرقة على كل شيء، تداخل في بكائه ما رآه في رحلته وخذلاناته في قريته وموت والده وأمه شريفة، وصوت الشيخ عامر وهو يقرأ القرآن، عجزه العميق عن الوصول إليها، وهو الذي كرر المحاولات ليلتقيها مرة بعد أخرى ولكن بلا فائدة، من هي ؟ من هي ؟ سؤال يتردد في نفسه، أي وجه ذلك الذي شتت طمأنينته ؟

هي لحظات تمتد حتى تكتسح العمر كله، شاهدها مساء ذلك اليوم وبحث عنها بعد ذلك كثيرا فلم يجدها، سأل عن ساكني الدار ولكنه اكتشف شيئا أوقعه في نفسه، إن البيت الذي وقفت الفتاة أمامه مهجور ولم يسكن منذ زمن طويل .

اشترك مع رجال الشيخ المنضمين حديثا في تعلم الرماية على البنادق، كان يدربهم شخص اسمه حتروش، كان رجلا طويل القامة ذا عضلات مفتولة، كانت عروق يديه وسواعده واضحة، كان قويا جدا، لدرجة أنه يستطيع أن يحمل في كلتا يديه رجلين، يعلقهما إلى الأعلى كلاهما بيد واحده، وكان يتميز بصوته الجهوريّ الذي عندما يتحدث ولو همساً يسمع من

مسافة بعيدة، لذلك كانت ساعات تدريبه للرجال معروفة بصوته في القرية، وكان الناس يستدلون على مكان التدريب عن طريق صوته، كان صارما وحازما جدا، لكنه كان في قرارة نفسه رجلاً أصيلاً .

يقال أن الشيخ اصطحبه من أرض الحجاز، ويقال بأنه قدم من ناحية الصحراء، الكثير من الأقاويل التي خرجت عن العملاق حتروش، وهو الذي يعتبر الساعد الأيمن والمستشار السريّ للشيخ .

كان حتروش قاسيا في البداية مع سليمان، لأنه رأى فيه شابا غضّا بعضلات طرية، ولأن الشيخ أوصاه أيضا بالإهتمام به وتدريبه على أكمل وجه، لكن سليمان تحمل كل ما لاقاه من خشونة في التدريب حتى استطاع أن يكون أحد الذين يشار إليهم بالبنان من رجال الشيخ ذوي الثقة، فكان عندما يرمي ببندقيته لا يخطئ هدفا إلا نادرا، وفي البحر هو مثل ذئب يدرك تماما كيف يستطيع الوصول إلى فريسته في الوقت تماما، وهكذا استقر به المقام في تلك الأرض وكأنه لا يحمل ذاكرة لبلاده البعيدة، أو كأنه وجد هناك منذ زمن بعيد .

ينتهي وقت التدريب قبيل المغرب، وأحيانا يبدأ التدريب مرة أخرى من منتصف الليل، وفي وقت الراحة يلجأ سليمان إلى

عزلته على شاطيء البحر، هناك عند النتوء الصخري، يجلس غارقا في خيالاته وأفكاره .

أمواج البحر تجيء بعنفوانها من الأعماق لتتكسر على النتوء الصخري، تتكون نافورة من القطرات المتطايرة في الهواء، تختلط بلون المغيب، ثم تتناثر في الأرجاء، تأخذها النسمات لتصل إلى وجه سليمان ناعمة وباردة .

السماء تمتلئ باللون الأحمر القرمزي مختلطا مع اللون الأصفر البرتقالي، والبحر يعكس بأمواجه المتلاطمة تلك الصبغة الدموية، وفي القرب يظهر الذئب بعينيه المشعتين، يترك مسافة فاصلة بينه وبين الجالس بالقرب من النتوء الصخريّ، يتشمم الصخور ويبحث عن فريسة عالقة بين الصخور .

في البدء، في اللحظات الأولى التي عرف بوجود الذئب قريبا منه ظل ينظر إليه، ظلا ينظران إلى بعضهما دون أن يتحرك أحدهما من مكانه .

شيء يشبه السكينة، يشبه الغموض والسحر، يشبه الدخول إلى أغوار جبل كثير الظلال، عينا الذئب تقتربان منه، تحتويانه، تحتله روحه، يقترب الذئب أكثر وأكثر، يتشمم قدميه وجسده، ثم يطلق عواءه في الأرجاء .

هناك ومن أعالي جبل القرن، كان صوت العواء يأتي إليه واضحا وعميقا في الليالي التي كان ينام فيها بالعراء، أخبرته شريفة إن هذا صوت الذئب، وحكت له حكايات عن روح الذئب التي يمنحها لمن يحب من البشر، أخبرته بأن للذئب روحا جميلة تحب الذهاب إلى المجاهيل البعيدة، وأنه هناك يتحول إلى فارس لا يقهر، قالت له أن بفضل الذئاب التي في الأرض يستطيع أن يحل السلام، ويقهر الظلم، كانت تقول له ذلك بلغتها البسيطة دون أن تتفلسف، شريفة التي يدرك أنها قضت جزءا من عمرها متنقلة من جبل إلى آخر ومن هضبة إلى أخرى .

أخبرته أنها ذات يوم اصطدمت وجها لوجه أمام إحدى الذئاب، كانت أغنامها تمشي خلفها، وكانت المسافة بينهما قصيرة، وصفت له عينيه، كأنهما جمرتين من نار، أو كأنهما نجمتين قطفهما الله من سماواته ووضعهما في هذا المخلوق، كانت تقف هناك امامه شامخة ليس في يدها سوى هراوتها الغليظة، وقف الذئب مكانه ونظره مرتكزا على عينيها، لم تكن خائفة، ولم تكن تتحداه أيضا، حفر قليلا تحت حوافره ثم تراجع، سمع عواءا في البعيد فأجابه بعواء آخر، التفت إلى جانبه، وجفل راكضا عائدا من حيث جاء، كان وقع أقدامه يشبه هدير مياه قادمة من القمة .

كان هناك يستمع إلى العواء المكتوم القادم من البعيد فيستأنس به، بينما يستلقي على الأرض ويرقب النجوم المتلألئة، يرسم منها ذئبا كبيرا يحتوي صفحة السماء، ويحتل العتمة، ثم يميل ناحية أمه يدس رأسه في صدرها، يستنشق رائحتها، يملأ رئته بحنانها وعطفها، تلف يدها على رأسه الصغير وتفرك فروة رأسه، وها هو الآن بين يديه ذئب حقيقي، الأسئلة تمخر في محيط عقله، لماذا يشمّ رائحة أمه الآن في هذه البقعة البعيدة عن الديار؟، لماذا يشعر بحرارة جسدها في جسده؟، لماذا عينا الذئب تنفجران ينبوعا من الحنان ؟ هل أنت ذئب يا ذئب ؟ أم أنت روح قادمة من المجهول ؟

يرقب سليمان الذئب كلما اقترب منه، لا يتحرك منه سوى عيناه، ثم آنس منه، بدأ يمسح بيديه على جسده، يمرر يداه على عنقه وفروته ويهرشها بأصابعه، يعوي الذئب عواءا خافتا، ثم يربض قريبا من قدمي صاحبه .

هرع أحد الحراس إلى الشيخ عامر، جاءه يلهث وهو يحمل خبر رؤيته لتلك الحالة المخيفة التي رآها هناك عند النتوء الصخريّ، أخبره بما رأى من دوران الذئب حول سليمان ثم جلوسه عند قدميه، قال أحد الأشخاص :

ـ يكون ابتلينا بساحر يا شيخ .

ـ لا ، خلوه على حاله ، ما تعرفوا من هذا ، اللّٰه يعطي الناس على قدر نفوسهم .

شعر سليمان وكأن روحاً أخرى تسكنه ، كلما هاجم سفينة ما ، رأى وجه المرأة الغريبة ماثلاً أمامه ، وحين يكون في معمعة المعركة تشرق ابتسامتها له فيلقي بنفسه في المهالك وكأن روحها هي التي ستنقذه من الموت . كان في الحقيقة مثل ذئب ، بل كان ذئب بحر شرس ، وما هي إلا أيام حتى لقبه الشيخ بذئب البحر ، ومع هذا اللقب الجديد زاد في روحه حبّ المغامرة العجيب .

مثلما تنتشر الأخبار سريعا مطعّمة بالزيادات التي تضخمها وتجعل منها أخبارا كبيرة قابلة للتصوّر والتصديق ، مثلما تنتشر الشائعات والأساطير وتكبر في رؤوس من يسمعها حتى يصبح الخيال عالما موازيا لعالم الحقيقة . انتشرت حكاية ذئب البحر من البصرة شمالا وحتى عدن جنوبا على طول الساحل الشرقيّ للجزيرة العربية ، ولم يكن ذلك كافيا بل انتقلت حكايته إلى الهند وشرق أفريقيا وكبرت حتى بات ينظر إليه على أنه أسطورة ، حكت العجائز لأطفالهن عنه في الليالي الأشد سوادا من طعم الجوع الذي ينهش بطونهم الصغيرة ، وتخيلت الفتيات اليانعات وجهه وجسده وحلمن بحضنه ورائحة

عرقه النفاذة، وبات نواخذة البحار يحسبون ألف حساب لتلك البقعة التي يمرون منها .

يقال أنه بفضل ذئب البحر استطاع رجال الشيخ أن يسيطروا على أكثر من عشر سفن كبيرة محملة بالبضائع والمؤن، والتي استفاد منها الجميع في بيعها على بدو الصحراء وقبائل الداخل، مما زاد في انتعاش الأسواق الداخلية آنذاك، ومما حدا بفقهاء الدين إلى إخراج بعض الفتاوى التي تجيز استغلال هذه البضائع لأنها كانت للكفار، ولم ينظر إليها كبضائع مسروقة، واقتربت القبائل من المكان، وبدأ البدو في التوافد والتخييم بالقرب، وعرض بعضهم بناتهم ونساءهم هدايا وعربون امتنان للشيخ ورجاله .

كان الجميع يود الاستفادة الكبرى مما في يد الشيخ، لكنه أبقى علاقته معهم صلفة ومتوجسة، ذلك لأنه يدرك غدر القبائل والدسائس التي من الممكن أن تكلفه حياته وحياة رجاله، لذا طلب من البدو الابتعاد من المكان وحدد الحدود التي لا يمكن المساس بها والدخول في حرمها لأي شخص مهما كان إلا بإذن منه .

نسي اسمه الحقيقي، يناديه الجميع بالذئب، ويتحدثون عنه بلقبه، عرض عليه الشيخ أن يتزوج، أعطاه خيارات كثيرة

لفتيات من قبائل الجوار، لم يكن ليفكر في الزواج حينها، كانت تطارده الحبيبة الغائبة في أحلامه ووحدته، اعتذر كثيرا للشيخ وذكر أعذارا كثيرة، لكنه في الأخير رضخ له وقبل بالزواج من فتاة عمرها أربعة عشر عاما، كانت ابنة لأحد الشيوخ الموالين، وهكذا دخل سليمان عالم الزواج لأول مرة ودخل بزوجته ونام معها في لياليه الأولى، لكن الصورة باتت تناديه أكثر حتى سيطرت على نفسه وجسده، حينها فاتح الشيخ بقصته وطلب منه ألا يرغمه على مواصلة أمر هو في خير منه، طلق زوجته وعاد إلى حياته الأخرى، عاد إليها بحب أعمق وخيال أوسع حتى تخيل أنه يحتضنها لينام معا، شعر وكأنها تعيش معه في ذات البيت، تقوم بكل أعمال الزوجة، بل كان يصطنع حديثا معها ويخلق حياة كبيرة ومكتظة، لكنه عندما يعود إلى وعيه يسقط في الضياع والحزن، يشعر بالوحدة من دونها وكأن العالم خاو، وكأن الحياة جرداء قاحلة لا أحد حوله، ولا ظل يقيه من الهلاك.

يقال بأن زواجه أنبت في قادم الأيام بذرة في رحم الفتاة التي حملت منه ورحلت إلى أهلها، وهناك كتمت الخبر عنه ولم يعلم بذلك سوى الشيخ الذي طلب منهم عدم التطرق إلى ذلك، وأعطى الفتاة ما يكفل لها حياتها وحياة طفلها، ويقال بأنها

ولدت بعد ذلك ولدا آلت إليه أمور القبيلة عندما توفي والدها شيخ القبيلة، وأنه حمل اسم قبيلة جده وصار من أحد شيوخ النفط وأصحاب النفوذ المعروفين بعد ذلك .

بهاتين اليدين المتعرقتين المتغضنتين قتل العشرات من أصحاب السفن، بهما رمى الجثث إلى أغوار البحر ورأى كيف تتجمع أسماك القرش الشرسة على الدم وكيف تنهش وتبتلع تلك الأجساد التي مازالت ساخنة .

في أحد الأيام حيث كانت تعبر بالقرب من المكان إحدى السفن الكبيرة، هجم هو وأصحابه عليها وبدأوا في إطلاق النيران من بنادقهم في الهواء تحذيرا منهم ولكن كانت السفينة للقوات البريطانية، وكانت من تلك السفن المزودة بالمدافع الحربية، كان قبطان السفينة يدرك خطورة مروره من هذا المكان لما يحويه من حكايات وتاريخ وخسائر أيضا، لذلك أعد العدة لملاقاة هؤلاء اللصوص الذين يتمركزون هنا، اغتنم الفرصة عندما أحاط الرجال بالسفينة، فبدأ بإطلاق المدافع الرشاشة صوبهم، أحس سليمان وأصحابه بالخطر الذي يحدق بهم، صرخ بعضهم على بعض بالهرب إلى البر، كانت جثث بعضهم تملأ القوارب، لكن المدافع لاحقتهم بقنابلها الثقيلة التي نسفت كل قارب وما فيه، تحول البحر إلى أشلاء،

عندها أمر قبطان السفينة أن ترمى القرية بالمدافع وأن تدمر عن بكرة أبيها ، عندها صار نهار القرية ليلاً أسود من الدخان، لقد نسفت البيوت كلها وسويت بالأرض، هرب من استطاع الهرب ومات من مات، لكن بعد ذلك عندما رست السفينة على شاطئ القرية بحثوا عن الشيخ أو عن جثته فلم يجدوه، كانوا لا يزالون متوجسين من خطر وجوده، لذلك ظلوا يمرون من المكان على طول شواطئ الخليج وهم في ترقب لأي هجمة من هجماته، لكن في الحقيقة ، اختفى الشيخ للأبد ولم يدر أحد أين اختفى ولا أين ذهب .

انتهى أمر الشيخ عامر بن سيف وجماعته من الجزء الشمالي لساحل عمان، تفرق من بقي في البقاع ومات من مات في البحر، مزقت المدافع الثقيلة مراكبهم وما بقي من أجسادهم ابتلعته الحيتان .

(5)

مذخور، مذخور، مذخور، كان يردد في قرارة نفسه اسمه العجيب الذي أطلقه عليه الرجل الذي ابتاعه والذي أعتقه أيضا، يضحك في نفسه وتبدو ابتسامه صغيرة على شفتيه ثم تختفي، يتذكر أصدقاءه الذين فارقهم والذين ودعهم كما ودع معهم سليمان من قبل، مذخور الآن في عرض البحر، ذاهب إلى ساحل أفريقيا الشرقي، هناك حيث حياته

الحقيقية بين الأدغال، وسوف لن يحتال عليه هذه المرة أي تاجرعربي، بل أنه سيكون ضدهم وسوف يراقبهم عن قرب حتى لا يقع أحد في حبائلهم .

كل هذه الحياة التي مرّ بها هي في منتهى الغرابة، يلتفت إلى يمينه فيرى البحارة وهم يشدون حبال الأشرعة ايذانا منهم بنشرها ، كان ثمة ريح خفيفة تهب من الشمال، تلك الريح التي يتنظرها الجميع لتدفع بالسفينة صوب الجنوب .

انتظر مذخور شهرا كاملا حتى تتحرك السفينة من مطرح، كان يكتشف المكان ويكتشف ناسه ويقترب منهم ومن همومهم، وبالرغم من لونه إلا أنه كان محبوبا من الجميع لطرافته، كان يرافق حميد الصابر الذي بدأ في عمله الأخير حمّالا للبضائع التي تستخرج من السفن ويذهب بها التجار إلى مستودعاتهم، كان يأخذ قرشا كاملا في اليوم عن عمله، وكان يخزن القرش كله ولا يصرف منه شيئا، لأن الرجل الذي اشتغل معه كفل له أن يأكل على حسابه، وفي أوقات الراحة يهمه أن يلتقي مع ابن البدوية ومذخور ثم يجوبون المكان متداخلين مع سكانه ومع القادمين من القرى للعمل والدخول مع الجميع في حوارات كثيرة، كان من أجملها تلك النكت التي يطلقها مذخور مصورا نفسه ما يزال في العبودية،

ساخرا بطريقته من الحياة التي يتصورها هؤلاء الناس ويؤمنون بها .

طلب منه النوخذة أن يساعده في حمل بعض البضائع والأمتعة إلى السفينة ، وطلب منه أيضا حمل بعض الأشياء من السوق إلى منزله ، وكان يقوم بكل ذلك بحب ، وهو يسخر من ذاته ، التي تستمتع بآخر لحظات العبودية .

وعندما حان وقت الرحلة حمل مذخور معه بعض ما اشتراه من السوق وودع أصدقاءه ، ثم ركب السفينة ، صرخ عليه حميد الصابر :

ـ نحرصك السنة الجاية ، تعال زورنا .

ضحك مذخور وصرخ عليه :

ـ بتكون عربييّ لجديد ؟

رد عليه حميد الصابر :

ـ لا والله فيّي عقل ، ما أخسر فلوس عليك .

يضحك الجميع ، يلوّح هو بيديه في الوقت الذي تبدأ السفينة فيه بالتحرك .

ها هو الآن وسط البحر ، يتذكر سليمان الذي استقل البحر أيضا ، سليمان صديقه المقرب منه ، ذلك الشاب الذي

كان يشاكس شيخ القرية ويسخر منه، كان مصيرهما طريق البحر، سليمان الذي ذهب شمالا وهو ذاهب إلى الجنوب، ترى هل سيكون هنالك متسع في الحياة فنلتقي ثانية يا سليمان ؟

يأخذ نفسا عميقا وهو يغمض عينيه، يدخل الهواء البحري إلى صدره محملا برائحة الكائنات البحرية ومشبعا بالملح، ثمة طعم عجيب يسري في حلقه، يستمتع بتلك اللحظة العابرة ويظل مغمضا عينيه ومصغيا إلى هدير البحر .

ذلك العجوز الذي كان يحتضر في القرية المنكوبة، كان يرى مصيره ومصير من قربه وإلا لماذا كان يشير إلى ناحية البحر، ربما كان لسان حاله يقول له أهرب يا ولدي، البحر ملجأ الناس الخائفين حتى يأخذك بعيدا عن الظلم والألم والموت .

كان مذخور في معظم الوقت الذي يقضيه على ظهر السفينة صامتا وهو يعيد شريط ذكرياته مرة بعد مرة، ترى كيف سيكون حال أهلك وعشيرتك عندما يكتشفون غيابك الطويل، وما الذي ستفعله أمك، هل ستبكي كثيرا على غياب ولدها، وما الذي سيكون من أمر أبيك ؟

يرقب النوخذة مذخور من بعيد ولا يدخل معه في نقاش، يتعجب من أمر صديقه الذي أعتقه، ترى ما الذي ستفعله بعد

عودتك أيها الزنجي الأسود ؟ وما الذي تفكر به الآن وأنت على حافة السفينة ؟

يقترب منه رجل متوسط العمر ويسأله :

ـ أنته خادم النوخذة ؟

ـ لا ، ما خادم حد .

ينظر إليه الرجل نظرة غريبة ، يهز رأسه ويمضي في طريقه ، وهناك على الحافة المقابلة للسفينة يراه يتحدث إلى رجل من المسافرين وهو يشير بعصاه ناحيته .

كان مع المسافرين امرأة في الثلاثينات من عمرها ، عرفت بقوة شخصيتها ومجاراتها للرجال ، فهي تحادثهم وتدخل معهم في نقاش وسخرية ، وتلقي كلامها بجرأة زائدة ، ولا تتحاشى أن ترمي بعض الكلام المطعم بالإيحاءات الجنسية ، لكن لم يكن ليتجرأ أحد على مجاراتها ، لأنهم يدركون من هي تماما ، ويخافون غضبها ، يقال بأنها أخذت عصا خيزران من احد المسافرين وضربت به أحدهم حتى ارتمى على الأرض من الألم ، ذلك لأنه أخطأ معها في الكلام ، ولم تكتفِ بذلك بل كانت تجره إلى مؤخرة السفينة وتود أن تلقي به إلى البحر ، لولا أن تدخل النوخذة وطلب منها أن تتوقف .

مرّت على مذخور ووقفت بالقرب منه ، قالت له :

ـ تعال، اتبعني، باغتتك .

مشت أمامه ولم تنظر خلفها ، راقبها مذخور متعجبا لكنه تحرك خلفها وتبعها حتى دخلت قمرتها ، وقف بالقرب من الباب، قالت له بصوت آمر :

ـ دخل، واتخجل من لحريم ؟

رد عليها بهدوء :

ـ ما مخجل من شي، بس مو باغية ؟

ـ دخل بتعرف .

تردد مذخور في البداية ثم دخل خوفا من البلبلة التي سوف يحدثها وجوده، طلبت منه أن يجلس على حافة سريرها ، كان ما يزال مترددا ، لكن نظرة منها كانت كفيلة أن يأتمر بأمرها ، قالت له :

ـ تعرف مو باغية ؟

هزّ رأسه نافيا ، فردت عليه :

ـ باغتتك تتزوجني .

قام مذخور من مكانه لكنها أشارت له أن يهدأ ، قالت :

ـ بالحلال، كل شيء بالحلال يا مذخور، على سنة الله ورسوله، الين نوصل الساحل، وخلاف كل واحد مننا فطريق .

رد عليها وهو حائر :

ـ بس أنا عبد وانتي عربية، بتستوي مشاكل عوده في المركب .

ضحكت وقالت :

ـ ماشي مشاكل وانا معك، عجبتني، وما أقدر أجلس بين هالناس كلهم من دون زوج .

وافق مذخور على الزواج منها، الرحلة سوف تستغرق ستة أشهر، وهو الآن في حضن امرأة جميلة وقوية، يكفي أنه الوحيد الذي سوف يحسده كل ركاب السفينة على امرأة مثلها .

ذهبت إلى النوخذة، أخبرته بأنها اتفقت ومذخور على الزواج وتريد منه أن يعقد قرانهما، غضب النوخذة من كلامها ووبخها على فعلتها، قال لها :

ـ ما لقيتي غير هالسودّ .

لكنها أوقفت استرساله وقالت له :

ـ هذي حياتي انته مو يخصك ؟ ما باغية منك إلا تشوفلي مليك، ولا تتدخل فشي ما يخصك .

في داخله كان النوخذة يهابها ويخاف تصرفاتها غير المتوقعة، فلو قررت أن تتزوج به دون عقد القران لفعلت، أدار المسألة في رأسه ثم هز رأسه موافقا وقال لها بتهكم وسخرية :

ـ الليلة، بنملكش عليه .

خرجت من عنده منتصرة، هي الآن تكسر حاجز العرف القبليّ التليد وتتزوج رجلا أسود، وهي الآن تختار لنفسها الرجل الذي أرادته، خرجت لتتهيأ لليلة عرسها، كانت تنوي أن تبهر من بالسفينة بزينتها، دخلت غرفتها وأخرجت ملابس جديدة من صندوقها، أخرجت خلاخيل من الفضة، وملبسا لرأسها من الذهب، ثم طوقت رقبتها بعقد اللؤلؤ الجميل . كانت تتخيل نظرات البحارة وهم ينظرون إليها بشغف، ابتسمت في خبث، وضعت حليها وزينتها في مكان ظاهر لتكون جاهزة لوقت الحاجة، واستلقت في سريرها وهي تتنفس بعمق، غارقة في تأملاتها لسقف السفينة .

انتشر الخبر سريعا في أرجاء السفينة، علم كل انسان عليها أن الليلة ستكون المميزة، إذ سيتزوج مذخور ذلك الزنجيّ الأسود برقيّة تلك المرأة الجميلة ابنة الحسب والنسب، تلك المرأة القادمة من أعماق الجبال والتي تسافر إلى زنجبار بحثا عن إخوتها الذين هاجروا منذ زمن واستقروا هناك، تسافر وحدها لكي تنقذ في القرية أموال أبيها التي استحوذ عليها عمومتها، كانت وحيدة وكانت جريئة لكنّ كثرتهم وخبثهم وقسوتهم كانت أقوى منها، لذلك قررت أن تسافر لتأتي بهم جميعا أو

ببعضهم ليكونوا سندا لها في استعادة مال أبيها، الأب الذي قضى نحبه وهو يتسلق جبلا، مترصدا للوعل الذي كان يأكل من شجرة صغيرة على القمة، الأب الذي زلت قدمه عندما وضعها على حجر غير ثابت فانزلق به إلى الهاوية .

وجد المستكشفون أباها وقد ازرقت جثته وتورمت، كانت عظامه متهشمة، أخذوه ودفنوه على ضفة الوادي ثم أخبروا من بالقرية بأمره .

ها هي الآن وبلا تردد، رقيّة ذات الشخصية القوية تقرر السفر وحيدة مع بحارة إلى سواحل أفريقيا، لتقضي معهم وقتا أكثر من نصف سنة حتى تصل، ها هي الآن تقرر أن تخز أعينهم بزواجها من رجل مختلف لا يربطه بهم إلا رابط وجوده على السفينة .

كان على السفينة رجل يلبس عمامة بيضاء، تراه صامتا طوال الوقت، لا يقترب من أحد ويشغل وقته في تدوير تلك المسبحة بين أصابعه، سمع بالخبر كما سمعه طاقم السفينة، فذهب بهدوء ووقف قريبا من مذخور، كان يقف وحيدا في مؤخرة السفينة، قال له :

ـ ايش اسمك ؟

ـ مذخور .

ـ مذخور ؟ ما يلك اسم غيره ؟

ـ كان يسميوني اومبابا ، حموه تسأل .

ـ انته رجال محظوظ .

ضحك أومبابا

ـ اشوف هالحظ بو نازل من السما .

ابتسم الرجل وقال :

ـ خبرني النوخذة أملكك اليوم على البنت، وقلت أسألك، تكون مزحة منه .

ـ لا يا عمي صحيح .

ربت على كتفه وعاد ليجلس على مصطبة خشبية في وسط السفينة .

مرّ ثلاثة أشخاص بالقرب من مذخور وهم منشغلون بالحديث مع بعضهم البعض في حين يسمّعونه كلاما عن زواجه وكأنه غير حاضر أبدا في المكان .

قهقهوا بشدة وذهبوا ، كان مذخور مسافرا في الأفق يستمع إلى كلامهم وكأنه غير موجود ، لم يبد أية علامة تدلّ أنه سمع كلامهم أو اكترث به، يدرك تماما أنه بصمته هذا يمتلك القوة التي تجعلهم يزدادون كراهية له وحقدا عليه وضعفا في الانتقام منه .

وأثناء وجبة الغداء أراد الجميع أن يقدم له الإهانة في عدم تقبلهم له في الأكل معهم، لكن الرجل صاحب العمامة البيضاء شعر بذلك ولم يترك لهم الأمر ليتمادوا فيه فأفسح له مجالا بالقرب منه .

فهم مذخور المغزى من ذلك الرجل المنعزل، أدرك فطنة الرجل وحكمته في صمته وعزلته، أفسح الرجل له مكانا وجلسا يتناولان غداءهما بصمت .

هذه هي المرة الثانية التي يقترب منه ذلك الرجل، شعر مذخور في قرارة نفسه بأهمية هذه الرحلة التي أخذته بعيدا عن أهله، رحلة لم تكن طوعية ولكنها صارت تعني له الشيء الكثير، لقد خرج من عالمه ومحيطه واطلع على عالم مختلف تماما، وهنا على ظهر السفينة ها هو يعيش في وسط الدائرة ويرى الضوء مسلطا عليه للمرة الأولى في حياته، إذ يوليه الجميع اهتماما عجيبا، تتداخل فيه الكراهية مع العجب والاحترام، إن عيون الناس من حوله تقول ذلك مهما بلغت حدة الكلام الذي يسمعه منها، لذلك كان شيء ما يكبر في داخله ويتسع ليصبح عالما خاصا به وحده .

(6)

في كل يوم كعادتها ، تخرج شمساء مع أغنامها للرعي في البقعة الجبلية المطلة على البحر ، تتركها هناك حتى الظهيرة ، تتقافز من صخرة إلى صخرة باحثة عن الأعشاب الخضراء المتشبثة بتلك الطبيعة الصمّاء ، بينما تجلس هي تحت ظل صخرة كبيرة شاغلة نفسها في صنع النجوم الصغيرة في كمّة سوف تبيعها عندما تكتمل .

شمساء، الفتاة ذات الخامسة عشر عاماً، وحيدة أبيها وأمها، التي أصيبت في رجلها عندما كانت في الثالثة من عمرها مما سبب لها عرجا دائما، لم تكن فتاة جميلة، كانت ملامحها عادية تماما، وكان جسدها نحيلا جدا لدرجة أنها دخلت إلى عالم المراهقة في فترة متأخرة، فلم يخرج الدم منها إلا بعد أن تخطت الرابعة عشرة، في حين كانت بنات جيلها تأتيهن الحيضة وهنّ في الثانية عشرة، لم تكن شمساء تهتم بشكلها ولا بجسدها، كانت مهملة من الجميع وكانت مهملة من ذاتها، يهمها فقط أن تسرح بأغنامها نهارا ثم تعود لتساعد أمها في أعمال المنزل.

لم يكن منزلا بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، بل عريشا مبنيّاً بالسعف. كان غرفتين متقابلتين تم بناؤهما في مكان مرتفع على تلة، وبجوارهما نبتت شجرة سدر كبيرة ظللت المكان، وتحت الشجرة كان موقد النار والأدوات القليلة التي تستعمل للطبخ، وعلى غصن من أغصان السدرة علقت قربة صنعت من جلد الماعز مملوءة بالماء، كان على شمساء مراودتها بين الحين والآخر لتزويدها بالماء، ولم يكن لهم جيران قريبون، جيرانهم كانوا على بعد نصف كيلومتر من المكان، لكن المسافة كانت قصيرة في تلك الأيام، وكان من الطبيعي أن تترك تلك

المسافة أحيانا ــ خصوصا مع المشتغلين في رعي الأغنام ــ ليكون للجميع بعض الحرية في التحرك لهم ولأغنامهم .

أحيانا تذهب شمساء إلى رفيقاتها لتقضي أوقات العصر عندهن، يجلسن ويثرثرن، تشرب معهن القهوة ثم تعود إلى المنزل لتساعد أمها في تجهيز العشاء .

في ذلك اليوم، أطلقت شمساء أغنامها لترعى في الجوار، جلست هي تحت الصخرة، أخرجت الكمّة من صرة حملتها معها، وبدأت في صناعة النجوم، كان البحر هادئا جدا، وكانت الأمواج تأتي برفق وتضرب الشاطئ الصخري للمكان.

رفعت رأسها، حملقت في البعيد الأخضر، حيث تلتقي السماء بالبحر، ثم جاءت قادمة تمشي رويدا رويدا مع الموج وعند المياه الضحلة التي تحتجزها صخور الشاطىء شاهدت ما يشبه خيال جسد متكوّمٍ على نفسه، ركزت بصرها فظهرت الملامح أكثر فأكثر، كان هناك جسد رجل قد احتجزته الصخور حتى لا تجرفه أمواج البحر . دق قلبها سريعا، ترى هل هي جثة ميّت ؟ هي لا تخاف الموتى، لكنها تخاف الاقتراب منهم، يرعبها ذلك، لكن شيئاً ما بداخلها أعطاها القوّة لتقترب منه، وضعت الكمّة في صرّتها، ثم وضعت حجراً على الصرة خوفا من تدحرجها بسبب الهواء ونزلت بين الصخور،

تزحلقت بقدميها العاريتين بطريقة قد أتقنتها لأنها فعلتها مرات ومرات، هبطت المنحدر حتى وصلت إلى الشاطئ، اقتربت من الجسد، كان ثمة جروح متفرقة في جوانبه، انه رجل في بداية العشرينات، بلحية خفيفة ووجه مدوّر، كان مبلولا بالماء. اقتربت أكثر، ركزت على صدره فرأت تنفسه، عرفت أنه ما يزال حيّا، حاولت سحبه من المكان ولكن لم تستطع، تمنت لو كان أحد بالقرب منها لساعدها على رفعه فجسدها النحيل لا يقدر على ذلك. ركضت إلى أعلى، نظرت في كل الجهات لعلها ترى أحدا، لم يكن هناك سوى أغنامها، ركضت باتجاه المنزل، نادت على أمها من البعيد، و على أبيها، كانت أمها تعد القهوة تحت الشجرة وكان أبوها مستلقياً بالقرب منها، سمعا صراخها، قام الأب من مكانه، كانت ملامحه تدل على أنه قلق من صراخ ابنته، ناداها: ماذا هناك، هل أصابك مكروه، وقفت في مكانها ونادته، ركض الأب باتجاه ابنته، ركضت أمامه تتقافز من صخرة إلى أخرى، فكر الأب وهو يرى نحافتها، لا عجب إن لم ينبت اللحم في جسدك، فهذا الركض بين الصخور هو من أخذه، قال ذلك في نفسه، ثم طرد تلك الفكرة عندما علم أنها تشبهه كثيرا، حيث كان نحيفا جدا في مثل عمرها.

عندما اقتربت من الشاطئ وقفت شمساء تنتظر أباها ، وعندما أقترب منها أشارت إلى مكان الرجل فنزلا معا وسحباه عن البحر إلى الظل، وهناك جسّ الأب الجسد فوجده ينبض بالحياة، فحصه فرأى الجروح تتناثر في أماكن مختلفة من جسده، فكّر : ترى من أين جئت، وأي موجة ألقت بك إلينا ؟

أي قدر هذا الذي يلعب بحياة هذا الرجل، تساءل الأب مع نفسه، حمل الرجل على كتفيه وصعد به الصخور واتجه إلى المنزل وهناك أرقده قريبا من الموقد ، كان يبدو عليه وكأنه يدرك ما يفعله، طلب من ابنته أن تشعل النار وأن تزيد الحطب، مزّق ثياب الرجل وتركه شبه عار، لفّ بعضها على وسطه، دخل العريش فاستخرج قطعة حديد لها رأس تشبه المسمار، أدخل الحديدة في الموقد وتركها حتى أصبحت حمراء من شدة اللهب، أمسك بخرقة وأخذها من طرفها ، ثم بدأ يكوي الجروح الغائرة، كان الرجل المغمى عليه يهتز بين الفينة والأخرى من شدة الحرق، طلب من زوجته أن تعجن بعض أوراق الظفرة التي كانت تنبت بكثرة في المكان، فعجنتها . وضع قليلا من الملح على العجينة ثم بدأ في وضع الخليط على جروح الرجل .

أربعة أيام كاملة بنهاراتها ولياليها ، والرجل ترهقه الحمى، أحيانا يسمعونه يهذي، يقول كلاماً لا يفقهونه، ثم يعود إلى سباته .

في اليوم الخامس، كانت شمساء تنظف له جروحه كما علمها أبوها ، شعرت بحركته، توقفت يدها عن الحركة واقتربت من وجهه ونظرت فيه، فتح عينيه ورآها ، غاصت في لونهما العسليّ وابتسمت له .

بحلق بعينيه في وجهها ، حرك رأسه يمنة ويسرة ،

- وين أنا ؟

لم يسألها ، كان يسأل نفسه، أو كان يريد جوابا لما حدث، وكيف حدث .

طوال تلك الفترة كان سليمان في غيبوبة عجيبة ، لم يشعر بمكانه ولا زمانه، يتذكر فقط أنه عندما رأى قنبلة المدفع مصوبة ناحية القارب الذي كان يتزاحم فيه مع رفاقه، لم يكن يرى قنبلة في الحقيقة ، كان يشاهد في زرقة السماء طائرا أبيض يقترب ناحيته، يهوي على القارب بسرعة فائقة ، رآه يشبك مخالبه في ثوبه ويرفعه عاليا ، رأى القارب من أعلى وقد مزقته القنبلة ، رأى جثث أصدقائه متناثرة على سطح الماء، ورأى الكارثة كلها ، الكارثة التي حلّت على الشاطئ، أرتفع

كثيرا في السماء حتى بدت الأرض تغيب عن ناظريه، ارتفع في الزرقة حتى اختفت معالم الأمكنة، رأى زرقة لا نهائية، ورأى وجه الفتاة التي تزوره في الحلم ممتدا في البعيد مشرقا من الزرقة .

سوف يطارده وجهها كثيرا، هل هذا حلم ؟ كان يسأل نفسه، من هي ؟ لا يعرفها حتى ذلك الوقت، لكن عندما هبط به الطائر على مرج أخضر ممتد تسيل الينابيع بين تلاله الحجرية الصغيرة، وألقى به على بساط أخضر من العشب فوجدها تقف قريبة منه، هي ذاتها، المرأة التي كانت تقف عند الباب، التي ابتسمت له، هي ذاتها الابتسامة، وقف على قدميه، شعر في البدء بثقل في رأسه، شعر وكأن دواراً قد أصابه من هول المفاجأة،

ـ وين أنا ؟

ابتسمت له مرة أخرى، لم تجبه، أخذته من يده ومشت به إلى ظل شجرة كبيرة وارفة الظلال، كان هناك مقعدان خشبيان وطاولة صغيرة من الحجر فيما بينهما، انقاد خلفها صامتا، أخذته كما تأخذ أم وليدها الصغير وتقوده حيث شاءت، وقفت تحت الشجرة، أشارت له بيدها أن يجلس، فجلس، كان طوال الوقت يحدق في وجهها كالمسحور، سألته وهي تبتسم :

ـ تبغى تعرف هين انته ؟

هـزّ رأسـه أيجابـا ، وقـال لنفسـه : هـذا الـصوت لـيس غريبـا عليّ، قالت له :

ـ أنته معي، في بلادك، في بلادي .

لقـد سمـع أيـضا هـذا الكـلام في مكـان وزمـان آخـرين ولكن أين، لا يدري .

استلقى على ظهره ووضع رأسه في حجرها ، أغمض عينيه ثم نام، لا يعرف كم استغرق نومه . شعر أنه نام طويلا جدا ، غرق في نوم بلا أحلام ولا كوابيس، كان آخر ما رآه أغصان الشجرة الكبيرة ذات الظل الوارف، وعندما فتح عينيه رأى وجه شمساء مبتسما وبعينين قلقتين يطل عليه، لذلك جاء سؤاله : أين هو .

نادت شمساء على أبيها ، جاء الرجل مسرعا وهو يردد ،

ـ الحمد للّه، الحمد للّه، كل شيء بيد اللّه.

ـ وين أنا ؟

أعاد سؤاله من جديد

ـ أنت فبيتي يا ولدي، لقيناك على البحر، بين لحياة والموت.

أي حلم هذا الذي يعيشه، أم أي واقع هذا الذي يحلم به، اختلطت عليه الحياة بخيالها وحقيقتها، فهو لا يدري في أي أرض يقف، وكلما دخل في واقع خرج منه إلى حياة أخرى مختلفة .

بحث في الجوار عنها، كيف حدث ذلك، كان ينام في حجرها، كان يود أن يقول لها أشياء كثيرة عن بحثه عنها في قرية الشيخ، وكيف أنه بكى كثيرا لفقدها، لكن كيف حدث ذلك، أخذته من الغرق والموت مع أصحابه ليستيقظ تحت هذه الشجرة التي تعتبر بيتا لذلك الرجل الذي كان يحدثه .

أغمض سليمان عينيه أو سقط في غيبوبته ثانية، الرجل يدرك ما يعاني ضيفه من آلام في جسده وفي نفسه .

خرجت شمساء بشياهها إلى المرعى، وعندما عادت وجدت سليمان جالسا يتحدث مع أبيها، عرف سليمان مكانه، حيث أخبره أبو شمساء أنه في قرية صغيرة تبعد أميالا عن قرية الشيخ عامر بن سيف، وأطلعه أيضا على الأخبار التي وصلت عن الدمار الذي حلّ بالشيخ وأعوانه .

أكل سليمان من خير الطبيعة وما قدمته له العائلة التي أنقذته والتي يدين لها بحياته طوال عمره . شرب حليب الغنم، وقدم له أبو شمساء بعض الأدوية التي تزيد في قوته وتعيد له

صحته، وبعد أسابيع من الجلوس في ذلك الركن الهادىء عادت لسليمان صحته رويدا رويدا، حتى استطاع أن يمشي دون أن يتعثر، وراح ويقفز من صخرة إلى أخرى مجاراة لشمساء، تلك الفتاة التي كأنها خرجت من صلابة تلك الطبيعة الصخرية .

طلب سليمان من الرجل أن يدله على أقرب مرسى يستطيع منه السفر إلى البحرين، أبدى الرجل حزنه ولكنه رضخ لطلبه وذهبا معا إلى قرية قريبة ترسو فيها السفن القادمة والذاهبة إلى الشمال .

ركب السفينة متجها للشمال مرّة أخرى، لوّح له الرجل ولوّحت له شمساء وبكت، دمعت عيناها لكنها أخفت ما يجول في خاطرها سريعا . كتمت كل شيء في نفسها، لوحت له، غابت السفينة في البحر، وعادت هي إلى عالمها الحجري الجميل .

(7)

رحل سليمان بن الصايغ شمالا ، ورحل مذخور جنوبا ، وبقي عامر بن البدوية وصديقه حميد بن الصابر في مطرح، مطرح التي لا تربطهم فيها ذكريات طفولة ولا ضغائن أو أحقاد ، مطرح التي تحفزك لتعمل أي شيء وإلا مت جوعا ، ونفاك الآخرون من جوارهم .

حميد الصابر شاب في مقتبل العمر، خرج من قريته التي لا يحمل في ذاكرته منها إلا الذكرى السيئة ، مرض أمه وجنونها ، مطاردة الأطفال له

وسخريتهم منه، موت أمه بعد ذلك، والحياة التي لا تشبه حياة الآخرين ممن هم في عمره، وهو في قرارة نفسه مقتنع تماما بأن الله لا يضيّع عبده، إذ أوكل القدر لتلك البدوية في احتضانه وتربيته، وعوضه بأخ قوي وعطوف مثل عامر، يصغي إلى كل كلمة يقولها عامر ويطعه في كل ما يفعله، يثق به ثقة الأعمى بمن يقوده في الدروب، يحبه كثيرا، ويدرك تماما بأن الآخر يقدره ويحترمه ويحبه بذات المقدار .

عندما يتحدث حميد الصابر تخرج اللكنة مصحوبة بخنة جميلة، لم يكن متسرعا في حديثه، هادئ الطباع، متأن فيما يفعله من أعمال، تشعر بأن الوقت كله ملك له، لا يبالي بالوقت تأخر أم تقدم، وفي أوقات العمل ينهمك بكل حواسه في عمله غير عابئ بما حوله ولا بمن حوله، لا يدخل في نقاشات جانبية مع الآخرين ولا تعنيه مشاكلهم وحواراتهم، بل أنه لا يترك لذاكرته أن تلتقط الملامح والوجوه التي تمر به كل يوم .

حميد الصابر عمل في بداية الأمر حمّالا، ينقل الصناديق المكدسة بمرفأ الميناء إلى مخازن السوق، كان يأخذ أجرته عن يومه، وعن كمية الصناديق التي حملها، ثم شارك ابن البدوية في بيع بعض البضائع التي قرر ابن البدوية شراءها من تجار الجملة مثل القهوة وحبوب القمح وبيعها بالتجزئة على مدخل السسوق .

في البداية طردهم التاجر الهندي الذي جلسا بالقرب من محله، دخل ابن البدوية في نزاع معه ولكن التاجر هددهم بشكواه للعسكري الذي يراقب السوق، ابتعدا عن المكان، دخلا إلى الداخل، وجد ابن البدوية في تجواله سكة ضيّقة تشرف منها على أحد أركان السوق، كان المدخل واسعا ويكفي لكي يعرضان فيها أكياس الحبوب .

أحضر ابن الصابر لوحين متآكلين وجدهما مرميين على الشاطئ، وضع حجارة كبيرة على الأرض، أخذت الحجارة زوايا الألواح، ثم وضع الألواح فوقها، وفوق الألواح أكياس الحبوب وعلى الجانب مرفع الميزان الذي اشتراه ابن البدوية من أحد التجار .

في الجوار من السكة، يوجد دكان كبير يبيع الأواني المعدنية، كان صاحبه رجل هنديّ، ذهب في البداية عامر ابن البدوية واستأذنه في البيع بالقرب من محله، ابتسم الرجل وقال له :

ـ ما في مشكل باباه، أرض ما من شان أنا، أرض من شان كله نفر .

فهم ابن البدوية ما يعنيه الرجل بلغته المكسرة، زاد ذلك من احترامه وتقديره له، مع هذا لم يدخل معه في نقاش أبدا،

كان يحييه كل صباح، يبادله الرجل التحية وينهمك كل واحد في عمله .

في البداية سخر بعض مرتادي السوق من وضعية عامر بن البدوية وابن الصابر، قالوا لهما، إن السوق لتجار اللواتيا والهنود البانيان، وقالوا لهما، إنهم يخافون من بوار السوق على الهنود لأن العمانيين قد قرروا الدخول في التجارة، قالوا أشياء كثيرة ومحبطة، واجهها ابن البدوية بالصمت والابتسام، أما ابن الصابر فكان وجهه جامدا، لا تستطيع أن تقرأ في محياه أية نتيجة للحزن أو للفرح مما قالوا، وبعد أيام قليله، كان سكان البيوت القريبة من السكة، يفضلون شراء حوائجهم من عند ابن البدوية وصديقه لقرب المكان، ولأنهما عرضا بضاعتهما بنفس سعر السوق .

زاد رواد المكان، مع الوقت، اسلوب ابن البدوية محبب وجالب للناس، فمع قوة شخصيته وحضوره كان صاحب نكتة، بدأ يعرفه رواد السوق وتجاره، وبدأ في شراء بضائع أكثر حتى استغل المساحة المتوغلة في السكة لصالحه .

لم يكن المكان مهما، لم يكن وسط السوق، ولم يكن من الأماكن التي يتبارز عليها أصحاب النفوذ، لكن الفضل يعود لإبن البدوية، ذلك الرجل الطويل القامة، صاحب الصوت الجهوري واللكنة البدوية التي ورثها عن أمه .

إن القوة التي استمدها عامر بن البدوية من شخصية أمه ساعدته كثيرا في اثبات وجوده بين تجار المفرد في سكك الظلام بسوق مطرح، تعمد أن يثق بالناس وأن يثق التجار به، كان يبيع بضاعته بالآجل، وكان يكرم المرتادين خصوصا القادمين من قرى الداخل .

بدأ الناس يشترون منه، الجميع كان يغادر المكان وهو يهزّ رأسه ويتعجب من أسلوب هذا الشاب .

إن الشخصية القوية لعامر، الشخصية الصحراوية البدوية التي سيطرت على سلوكه، شخصية المغامر واللامكترث، الكريم والشجاع، هي التي خلقت هذا المحيط الذي حوله، محيط عجيب ومتنوع من البشر الذي يتواصل معهم كل يوم، بلا تمييز وبلا انكار لأحد .

الصحراء المفتوحة الأفق التي لم يرها ذات يوم، الصحراء التي تسكن في ذاته، حكت له والدته عنها، عن تلال الرمال، عن النسيم وحكاياه، عن أبطال الصحراء من أجدادها، ومع الأيام كبر عامر في قرية العسبق، كبر معه البدويّ التوّاق للرحيل والمغامرة، كبر معه الحلم الأبدي لارتياد المجاهيل، ولكنه لم يتجه إلى الصحراء، لم يدخل بحر الرمال العظيم، بل جاء ليطرق بحرا أعظم وأشد أمواجا ورمالا وغرقا، ليطرق

بحرا أكثر عتمة ومجاهيلا وتيها، ليطرق بحر التجارة الذي لا تحده الحدود .

لم يكن لحميد الصابر وصديقه عام ابن البدوية مسكن يلتجئون إليه، كانا ينامان على الأرض في ذات السكة التي توجد بها بضاعتهما، يتناوبان على النوم والصحو، ويتناوبان أيضا على الذهاب إلى المسجد، وقضاء الحاجة، وكانا يصنعان غداءهما في ذات المكان، المكان الذي أصبح بيتا ودكانا .

لا يوجد شتاء قارس في مطرح، لا يوجد ذلك الشتاء القرويّ الذي تعودا عليه، هنا رطوبة البحر أعطت للشتاء ذلك اللطف الذي لا يحتاجان إلى الانضمام عنه، يكفي أن يلقي كل منهما برنوصا من الصوف الثقيل على جسده وينام تحت جدار السكة.

ضرب عامر التاجر الهنديّ الذي طرده ذات مرة من مدخل السوق، ضربه على رأسه بخشبة عندما صرخ به الآخر أمام الناس ونهره، جاء يهدده ويتوعده ويدعي بأن المكان الذي يعرض فيه بضاعته ملكا له، نظر ابن البدوية لجاره الهنديّ الذي يبيع الأواني المعدنية، نظر الآخر إليه، لم يقرأ في ملامحه ولا عينيه شيئا له قيمة، كان يحاول أن يستنجد به بالنظر ،

ومع صراخ الآخر وتهديداته وجد نفسه يرفع الخشبة بغضب ويضرب بها رأس التاجر الهنديّ .

يملك الرجل البدويّ الجرأة إلى حدّ أنه لا يفكر بما قد يحدث له بعدها . قال لنفسه : كيف لهذا الهنديّ النجس أن يصرخ في وجهي، وأمام الناس ؟.

جاء العسكر وأخذوه إلى القصر، غاب لفترة لا يعلم الآخرون ما سيُفعل به، اختفى ابن البدوية في غياهب الجلالي .

قضى ابن الصابر الأيام يدير التجارة وحيدا، توقف في بداية الأمر عندما أخذ العسكر صديقه إلى السجن، ولكن بعد أيام جاءه جاره الهنديّ ونصحه بالعودة للبيع .

جلس في ذات المكان الذي اعتبره مسكنا له ودكانا بأحقية السبق، ولكنه خاف من عودة العسكر، خاف أن يزجوا به أيضا في السجن، لكن جاره الهنديّ قد طمأنه، وقال له :

ـ ما في خوف، أنا في ترتيب .

عاد ابن البدوية بعد أشهر إلى السوق، عاد وكأن شيئا لم يكن ، عاد بنشاطه وطاقته، عانقه حميد الصابر معانقة من يعود من سفر بعيد، سأله عن أخباره ولكنه لم يعط جوابا واضحا لأي سؤال سأله، كل ما قاله له هو سؤال وحيد :

ـ تبغى تشتغل معي ؟

ضحك ابن الصابر ورد على صاحبه :

ـ هين أشتغل معك ؟ سرقولك عقلك هناك ؟

ـ نتاجر، نستورد أغراض ونبيعها .

ـ وهذا بو جالسين نسويه ما تجارة ؟

ـ هذي تجارة، لكن شيء عن شيء يفرق .

لم يفهم حميد الصابر ساعتها ما الذي يقصده ابن البدوية ولكن وافقه على الأمر تماشيا معه، هو لا يرد رأيا لصديقه، لا يعانده فيما يراه، يدرك تماما المحبة التي بينهما ويدركة فطنة ابن البدوية وقوته الداخلية .

في اليوم التالي ذهبا معا إلى بيت جارهم التاجر الهندي، دخل ابن البدوية في نقاش بلغة الرجل، لم يفهم حميد ما دار بينهما، وتعجب من صديقه من أين اكتسب هذه اللغة، وما الذي حدث معه وهو في كوت الجلالي، هل كان مسجونا حقا ؟ أم أن في الأمر سرا لا يعرفه .

بعد ذلك أخبر ابن البدوية صديقه بأنهما سوف يبتاعان شحنة قادمة من البضائع، لقد اتفق مع التاجر على أن يشتريا الشحنة القادمة كلها دفعة واحدة، مؤجلة الدفع وبالسعر الذي اتفقا عليه هو والهندي .

في ذلك اليوم طلبا وجبة غداء دسمة محلاة بالبهارات الهندية، كان مطعم كراتشي من المطاعم المشهورة في ذلك الوقت والذي يتفنن في تقديم الوجبات الهندية المختلفة، كان حلم ابن الصابر أن يتذوق وجبة من وجبات ذلك المطعم، وها هو مع ابن البدوية هذا بل ابن الجنية كما يسميه ابن الصابر في سره، يجلس على طاولة مثلما يفعل الهنود والانجليز وينظر إلى الصحن الفارغ أمامه، منتظرا تلك الروائح التي تغرق الحلق والتي كانت تسيّل لعابه كما تسيل وديان قريته البعيدة، كلما مرّ بالقرب من المكان ذاهبا إلى البيت الذي يسكن فيه مع مجموعة من القرويين، الذين كانوا يكتظون بالقرب من بعضهم البعض حتى يسعهم المكان، ها هو الآن يحملق في المكان، يكتشف زواياه وأركانه، يقرأ الوجوه الداخلة والخارجة، يرمق الهنديّ الذي يجلس بالقرب من الباب وأمامه طاولة وضع عليها بعض الصحون الممتلئة بالحلويات الهندية والمكسرات، ومن أمامه يمر الجميع دافعين له قيمة الوجبة التي التهموها، ثم يحوّل نظره ناحية ابن البدوية يحاول قراءة ما يجول في خاطره. كان ابن البدوية ينظر إلى بعض رواد المطعم، يرشقهم بابتسامة سريعة وربما رمى في مسامعهم بعض الكلمات الهندية، مما يجعلهم يشاركونه الابتسام من قبيل المجاملة أو السخرية.

هل هذا صديقه الذي يعرفه جيدا ؟ ترى ماذا فعلوا بك خلف أسوار السجن ؟ من أنت ؟ هل سحروك، هل خرجت من هناك بروح جديدة ألبسوك إياها ؟ إنني اخاف المغايبة وأموت من الحكايات التي يسردها الناس عنهم، فهل يُقدّر لي أن أصاحب مغيبا ؟ يا إلهي، ترى ما سرّك يا ابن البدوية ؟ تنهد حميد وهو يفكر في نفسه، زفر زفرة عرف صديقه معناها، نظر إليه وضحك .

يدرك تماما قلق صديقه وما يعانيه، يدرك تماماً هذا الاختلاط الذي يعيشه ابن الصابر وهو يعرفه جيدا، لكنه قرر أن يتمادى قليلا حتى يرى تأثير ذلك عليه .

أحضر نادل المطعم وجبتيهما، أكلا صامتين، ثم طلب ابن البدوية من النادل أن يحضر لهما شايا أحمر، خرجا من المطعم وشربا الشاي على مدخله وهما يواجهان البحر وهو يدفع أمواجه المتعبة لتتكسر على الشاطئ، جلسا على كرسيّ طويل مقابل البحر، أخبره بحكايته التي كانت مع عقيد الشرطة ومع التاجر الهندي، وكيف تم الاتفاق بينهما أن يكون ابن البدوية في الصورة ليتاجر بمال الهندي وأن يكون للعقيد أيضا نصيب من تلك التجارة، أخبره أن الهندي سيتكفل بكل شيء .

نظر حميد الصابر إلى البحر وجمّد نظرته على زرقته، سأل صاحبه :

ـ وموه يضمن لك حقك ؟.

ـ ما يضمن لي شي، مو خسرانين قوللي، سوي نية واركب بحر .

اتفق الصديقان على العمل معا بسرية تامة، استأجرا بيتا صغيرا لكن في نفس الحارة، بدا للجميع أنهما ما زالا يعملان في السوق، استأجرا أحد الرجال لحراسة البضاعة ليلا، كانا ينامان في البيت ثم يذهبان إلى السكة بعد صلاة الفجر أو يذهب أحدهما بينما الآخر كان ينهي احتياجاتهما والتزاماتهما من السوق .

بعد أيام وصلت السفينة الهندية المحملة بالبضائع والأغذية، انتشر الخبر في مطرح بأن عامر هو الذي اشترى الحمولة كاملة وبدأ في بيعها على تجار التجزئة . صار حديث القادمين من القرى والسكان الأصليين لمطرح لشهور عديدة عن ابن البدوية، وكيف أنه استطاع الإطاحة بالتجار الهنود وتجار اللواتيا، وكيف أنهم ساوموه على الأسعار وباع بالثمن الذي فرضه بنفسه، وبالطبع لابد للأسئلة أن تدور في المجالس وفي الرؤوس، من أين لهذا الرجل الفقير، هذا القرويّ من أين له كل هذا المال ؟ لا أحد يعلم ما الذي حدث، كان البعض

يعرف قصته مع التاجر الهندي وقصة سجنه، لكنهم لم يربطوا ذلك بكل التغير الذي حدث .

في لقائهم الأول مع عقيد الشرطة في بيته، كان قد أعد لهم وجبة كبيرة ودسمة، فلم يدر ابن الصابر ما يفعل، ولقد سدّت نفسه من القلق في اختيار ما الذي سيأكله مع وجود كل هذه الأنواع، ثم استقرت نفسه على الرز الأبيض المحلى بالزعفران وسكب عليه بعض مرق الدجاج، وأخذ صحنه وانضم إلى الجماعة الذين بدأوا في أكلهم وحديثهم .

هو القروي الذي لم يحدث إلا نادرا أن أكل في صحن لوحده، أما مع الجماعة فهم يأكلون في صحنٍ كبيرٍ معا . دارت أحاديث كثيرة تتحدث عن المستقبل وعن الشحنات والبضائع التي ستأتي مع قادم الأيام، اقترح العقيد أن يدخل تجارة الملابس القادمة من الشرق والعطور، لكن التاجر الهندي لم تعجبه هذه الفكرة، وخاف أن لا يشتري الناس البضاعة فتبور .

سأل عقيد الشرطة عامر ابن البدوية، إذا كان لديه اقتراح ما فقال :

ـ نشتري سلاح .

ـ سلاح ؟ شهق الجميع جملة واحدة وهم يسألون عامر .

ـ هيه سلاح ؟ وايش هم الناس هنا غير السلاح ؟

الأفكار تتقاذف من كل حدب وصوب، تكررت اللقاءات حتى بات حميد الصابر وابن البدوية ركنين أساسيين في تلك الأحاديث، أعجب التاجر الهنديّ بعقول هؤلاء القرويين و أحب العمل معهم . بدأت الأفكار تظهر في النور، وبدأت تجارتهم في الرواج حتى بات ابن البدوية أحد من يشار لهم بالبنان في السوق، بدأ شيوخ القبائل القادمون من داخل عمان في التقرب إليه، وكان صيته على كل لسان.

عندما اشترى أحد الشيوخ الكبار المعروفين في ذلك الوقت، شاحنة من السيارت المعروضة وبدأ هو وقبيلته في تنظيف الوديان وتمهيد الطريق لها لتصل إلى بلدته البعيدة الواقعة على مشارف الصحراء، تعلم الشيخ كيف يدير محرك السيارة وكيف يتنقل بها، تعب حميد الصابر الموكل بهذه المهمة من عقلية ذلك الشيخ الذي حسبه فطنا في كل شيء، حتى علمه كيف يحرك السيارة من مكانها . كان الشيخ يغضب ويصرخ في وجه حميد الصابر، فتلتم القبيلة حول حميد وكلهم شاهر عصاه أو سلاحه في وجهه إيذانا منهم بتأديبه لأنه أغضب كبيرهم، وكان حميد الصابر يضحك بكل أريحية مما يحدث، ويهزّ رأسه، ثم يقول للشيخ :

ـ باغي تقتلني ؟ كان تريد أعلمك على الموتر ما اريد حد من قبيلتك هنا .

أمر الشيخ رجاله جميعا بالانصراف من المكان، وبعد أيام كثيرة استطاع أن يجيد تحريك السيارة إلى الأمام والخلف والتدوير بها، وهكذا قرر حينها أن يأخذ السيارة إلى بلاده بعد أن شحنها بكثير من البضائع واللوازم ، وبدأت القبيلة في شق طريق بين الحصى والوديان والهضاب حتى اختفت السيارة عن الجميع ودخلت عالم السحر، وتحدث عنها القاصي والداني.

في الأيام التي تلت، وقّع التاجر الهنديّ عقدا مع إحدى الشركات المصنعة للأسلحة، فكر في كلام ابن البدوية وأعجبته الفكرة، خصوصا عندما استطاع عقيد الشرطة أن يقطف موافقة مبدئية من القصر بشراء نصف الكمية الأولى، حينها رتّب أموره لشرائها .

غصَ السوق بالأسلحة، وتحدث القاصي والداني عنها، بعث شيوخ القبائل الكبيرة من يشتري لهم منها، وفي غضون ثلاثة أشهر بيعت آخر قطعة منها .

كبر ابن البدوية أكثر وأكثر في نظر التاجر الهنديّ، أعطاه زمام الأمور ووثق به، ورآه وهو يحوّل السوق إلى وجهته، وكيف أنه بطريقته استطاع أن يُميل كفّة القرويين والقادمين من الصحراء ليبتاعوا من بضاعته، واستقرت أمور ابن البدوية وحميد الصابر وصارا من تجار السوق .

(8)

في تلك الليلة المقمرة، الليلة البحرية العجيبة، يحدث أن تمر على الإنسان ليلة تكون أقرب في تفاصيلها من حكايات ألف ليلة وليلة، هل هي ليلة من السحر ؟ هل كان يحلم بما حدث ولم يكن حقيقة ؟ هل اختلطت الأمور عليه في وسط البحر فصار يرى وجه سلمى ذات العيون الخضر ابنة الشيخ والتي أسرت قلبه وأودعت في صدره ما يشبه الطعنة كلما تذكرها

أو حلم بها ؟ سلمى الفتاة الجميلة التي تزوجت من ابن عمها وأخذها إلى قريته، سلمى التي بكى في ليلة زفافها، دخل قبوا وأغلق على نفسه وبكى بحرقة من فقد كل شيء في الحياة، بكى أهله وبكى نفسه وبكاها، فهل هو الآن معها ؟ .

ملّكه النوخذة يدها، وفي تلك الليلة طرق باب قمرتها ففتحت له الباب، كانت تلبس قميصا شفافا كشف بياض جسدها البضّ، وكانت قد سرحت شعرها واطلقته مسترسلا ليصل إلى خصرها، كانت الغرفة تفوح بالبخور، سحبته من يده، أغلقت الباب وجرته ليجلس على السرير بجانبها، وضعت كفيها على خديه، نظرت إلى عينيه بعمق، ابتسمت له، وضع يديه على خصرها، سحبها ناحيته، عانقها فرحل إلى عوالمها السحرية، هل كانت هي بجسد أخرى ؟ لم يتذكر، لكنه تذكر أنه دخل أدغال جسدها وأطلق عواء حيواناتها الوحشية، كانت السفينة تهتز بفعل الموج، وكانا يهتزان فوق سريرها راحلين في عذوبة اللحظات، يحاولان أن يمسكا بالأبد ويقيداه من رجليه وينتفا له ريشه حتى لا يطير، وربما كان هناك سرب طيور من النوارس تقطع المسافة وهي تمر أعلى رأسيهما فتوجسا منه أن يطلق جناحيه ويتبع السرب .

جلس الرجال قريبا من بعضهم في تلك الليلة، كانوا صامتين، البعض نكّس رأسه حزنا أو خجلا، لقد حدث شيء لم يتعودوه أبدا في قاموسهم التقليديّ، وكان البعض يتنفس حسرة على امرأة مثلها بذلك الجمال، لكنه يعود ويردد في نفسه، الله يعيد لها عقلها، المسكينة جنت، هذا نوع من الجنون، لم تتعود على سفر البحر وها هي تصاب بلوثة في عقلها جرّاء الاهتزاز الدائم، ربما سحرها ذلك الأسود البغيض، يسمع البعض عن قصص السحر الأسود القادم من أدغال أفريقيا، من يدري مصداقية هذا الرجل وعدم ممارسته للسحر ؟ ربما يكون ساحرا كبيرا متقمصا دور العبد المظلوم ليكمل بغيته، البعض الآخر صمت دون أن يفكر في شيء، كان يستمع إلى ضربات الموج على جسد السفينة، ويستمع لكل همسة في تلك الليلة المقمرة .

تهامس ثلاثة من ركاب السفينة فيما بينهم وقاموا قبل طلوع الفجر، سحبوا أرجلهم ببطء حتى لا يوقظوا النيام من حولهم، اتجهوا إلى قمرة العروس وطرقوا الباب، سحبت رقيّة ملابسها وتدثر مذخور بردائه وصرخ:

ـ ايش هناك ؟ .

توجست رقيّة من الطارق، تأهبت لأي شر ربما سيقع، سحبت خشبة كانت قد أودعتها زاوية الغرفة، وجلست على طرف السرير، قالت له:

ـ افتح الباب .

فتح مذخور الباب، وخرج، أغلق أحدهم الباب من الخارج بقبضته القوية ووضع خشبة على القفل، تأكد أنه أغلقه بإحكام، بينما أمسك الإثنان الآخران بمذخور وطوقوه وسدوا فمه بقطعة قماش حتى لا يصرخ، ركض الثالث وربط حبلا برجليّ مذخور وكتّف يديه إلى الخلف، أحكموا تغليله وأسقطوه أرضاً، تأكدوا من عدم مقدرته على الفكاك، ثم قاموا بركله ولكمه في مواضع مختلفة من جسده كيفما اتفق، تألم كثيراً، حاول الصراخ لكن تكميمه حال دون ذلك، بدأ يفقد وعيه من شدة الألم، حينها سحبوه ليلقوا به إلى البحر .

حاولت رقية أن تخرج من قمرتها، بذلت قصارى جهدها، صرخت ولكن هدير البحر ذوب صوتها وابتلعته الأعماق، ركلت الباب، أحست بضعفها يتكدس دفعة واحدة، خارت قواها وسقطت باكية على أرض السفينة، أجهشت بحرقة وهي تصرخ، كان صراخها يشبه عواء ذئبة جبلية وقعت في فخ .

فجأة ينفتح الباب، ثمة يد خفية من الخارج تسحب الخشبة العالقة في القفل .

عند حافة السفينة، وعندما هبّ الثلاثة بإلقاء مذخور مقيدا في البحر، فوجئوا بهراوة تسقط على رؤوسهم وعلى أكتافهم، تقرقعت عظامهم من شدة الضرب حتى كادت أن تنكسر، سقطوا في إغماءة من هول الضربة التي تلقوها على رؤوسهم، سقط مذخور من يديهم على الحافة وكاد أن يسقط في البحر لولا أن يداً التقطته وسحبته بعيدا عن الخطر .

في الصباح، وجد البحارة والركاب ثلاثة أشخاص تم تكميمهم وتقييدهم عند حافة السفينة، كانت الدماء التي نزفت من رؤوسهم قد جفت ولونت السطح، تعجبوا من حالهم، سألوهم بعد أن فكوا قيودهم وتكميمهم عمّن فعل بهم ذلك، ولكنهم ظلوا صامتين .

اقترب النوخذة منهم وسألهم عن القصة، حينها ظهرت رقية في أبهى حلة من قمرتها، وأخبرت الجميع بما حدث .

ـ أنا سويتبهم كذاك .

ركلت أحدهم برجلها ثم عادت لتتحدث مع النوخذة، خرج مذخور يجرّ نفسه جرّا وهو يقاوم جراحه، حينها أمر النوخذة رجاله أن يأخذوا الرجال الثلاثة ويغلقوا عليهم سرداب السفينة

عقابا لهم على صنيعتهم حتى يصلوا إلى زنجبار، وهناك سوف يسلمهم إلى السلطات لتتخذ الاجراءات اللازمة في قضية الشروع بالقتل .

جاء الرجل ذو العمامة البيضاء وأخذ مذخور من يده، أرقده على مصطبة، ثم فتح صندوقه ليخرج منه بعض الأعشاب، وبدأ في دقها ثم وضعها على مواضع الجراح، كان مذخور يتألم بسبب تفاعلها مع جراحه .

جلست رقيّة عند رأسه، دلكت فروته ووضعت يديها على وجهه، لامست كتفيه وهي تحدثه وتصبّره، كان داخلها يغلي من شدة الحنق على الثلاثة، تمنت لو أنها ألقت بهم مكتوفي الأيدي كما قد كادوا يفعلون بمذخور، لو أن البحر اخذهم، ولكن تذكرت أن هناك من يأخذ بحقها منهم عاجلا أو آجلا.

أية يد قدرية قد فتحت الباب المحكم إغلاقه في ذلك الوقت، من كان يدري ما الذي سيحدث لمذخور لو ألقاه الثلاثة مكتوفا في الماء، أغمض عينيه وأمتنّ في داخله لمن أنقذه، زاد إكباره وتعظيمه وحبه واحترامه لزوجته، لقد أنقذته من موت محكم، امتنّ لتلك اليد الغيبية التي فتحت الباب، نظر في وجه الرجل صاحب العمامة البيضاء فوجد ابتسامة عميقة وهادئة تحتل وجهه، ترى هل كان صاحب تلك اليد ؟ من يكون لو لم

يكن هو ؟ هل انفتح الباب بسبب الاهتزاز والموج ؟ شيء محيّر، لكنه حمد الله وأغمض عينيه راحلا هذه المرّة مع كل ألم يستشري في جسده من جراء العذاب الذي لاقاه البارحة .

ها هي رقيّة مرةً أخرى تعطي درسا آخر لكل من تسول له نفسه أن يلعب معها لعبة غدر، صار الكل يهابها كما يهاب الغواصون أسماك القرش وهي تتمشى بالقرب منهم، تقول في ذاتها إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب .

هل هي حقا تلك المرأة التي عانقها ليلة البارحة، تلك المرأة الممتلئة أنوثة وجمالا وحبا، هل هي هذه المتسلطنة التي يهابها الجميع، اقتنع في داخله بأنه قد تزوج من ملكة، وأن دم الملوك يسري في شرايينها، وأن هذا من حب الله له ومكافأة على صبره على ما حدث معه في حياته .

طببه الرجل ذو العمامة البيضاء في الأيام التي تلت ذلك، حتى تعافى شيئا فشيئا . بقيت بعض الندوب في وجهه من أثر الركل . أحب الرجل الطيب بصمت، وزاد من احترامه لطاقم السفينة وتضامنهم معه ومع قضيته، عمل معهم كواحد من أفراد الطاقم، كان يقوم بكل عمل يوكل إليه، عمل بحب وتفان، حتى استطاع أن يكسر الحاجز الذي بناه النوخذة حوله، وأخيرا ها هو النوخذة بشحمه ولحمه يمزح ويتسامر معه.

في الأيام التي تلت، اتفق مع زوجته على أن ينام هو خارج القمرة مع طاقم السفينة والركاب . اتفقا على ليلة واحدة في الأسبوع يزورها فيها ، خاف أن يخلق حساسية أخرى مع من حوله . بدأ الرجال بالتعود على الوضع ومع الأيام ذابت تلك الكراهية الداخلية له وتقبلوه كواحد منهم .

(9)

في اللحظات الأخيرة التي تودع فيها الأسرة إبنها وهو ذاهب إلى التدريب العسكري، في تلك اللحظات التي تأكد سليمان أنها لا محالة واقعة، وفي اللحظة الأخيرة التي يصافحه فيها ولده استئذانا بالرحيل، شدّ سليمان على يد ولده وهزها قائلا له :

- كون رِجّال .

كانت تبدو كنصيحة صغيرة لكنها تحمل في طياتها نصيحة أكبر، استوعبها الولد وهزّ رأسه،

تلك النصيحة التي استمرت تطنّ في رأسه لزمن بعيد مثل صفيحة النحاس.

انتظر عبدالله الصربوخ زميله طارق على قارعة الطريق، ومثل أول رحلة لهما معا إلى معسكر التدريب، أيضا رافقوا في رحلتهما هذه الانتظار وأرتال الغبار والجوع والتعب حتى وصلا إلى بوابة المعسكر .

أوقفهما حارس البوابة، طلب منهما تصريح الدخول، ثم دلهما على اتجاه مسكن الجنود المستجدين، وهناك كان الذين وصلوا واقفين في طوابير ومنتظرين توزيع الثكنات والأسرة .

من حسن حظ عبدالله وطارق أن توزيعهما جاء في ذات الثكنة وأعطيا سريرين متجاورين، حيث كان التوزيع مرتبا بالحروف الأبجدية، ثم أعطي كل جنديّ رقما عسكريا سيكون ذلك الرقم معرفا به حتى نهاية خدمته العسكرية .

أن تنام في تلك الثكنة الكبيرة، تلك الغرفة الطويلة الممتلئة من جانبيها بالأسرة، أن تنام مع أشخاص لا تعرفهم، يعني ذلك أن تفقد خصوصيتك وملكيتك للأشياء، فهنا لا خصوصيات، ليس لك من كل ما يحيط بك إلا سريرك ودولابك الذي تتقاسمه أيضا مع جارك .

في الليلة الأولى لم يستطع عبدالله الصربوخ النوم، كان بعض الرفاق يتحدثون فيما بينهم فتسري في الهدوء أحاديثهم وتشوش عليه رقدته، البعض كان غارقا في النوم لدرجة الشخير المزعج، بعضهم يدخل ويخرج، هل سيعتاد على هذه الحال ؟ وقبيل الفجر غرق في النوم لدقائق قليلة، ثم جاء المدرب ليوقظ الجميع صارخا فيهم :

ـ طابووور طابووور .

هرع الجميع والأحلام تملأ أعينهم، غير مدركين بما حدث، الجميع خرجوا إلى خارج الثكنة ثم وقفوا طابورا، بينما صمتوا متلقين الأوامر من المدرب .

هب الصربوخ من رقدته، كان يحلم، كان غارقا في الحلم، الصداع الذي احتل قمة رأسه أوهمه بأن كل شيء ثقيل في تلك اللحظة، شعر بثقل الأشياء من حوله، الهواء والبرد الصباحيّ وصوت المدرب وخطوات زملائه على الأرض، لم يكن لديه الوقت ليتثاءب، فحتى التثاؤب هرب راكضا خلف الأحلام خوفا من صوت المدرب .

المدرب خمّاس بن محمد المشتطّ، تم انتقائه بجدارة لكي يقوم بتدريب هؤلاء الشباب الذين لا يعرفون ماذا تعني كلمة عسكري حتى ذلك الوقت .

المدرّب خمّاس المشتطّ، رجل أسود اللون، سواد بشرته قاتمة جدا، وكأن كحلا أمتد في الأفق، طويل القامة وجسم ضخم، ذو صوت تدرب على أن يبقيه عاليا وصارخا، إلا عندما يجلس وقت راحته، يخرج صوته رخوا من أعماق الصدر، فمن يراه وهو في ساعات استرخائه لا يتوقع من هذا العملاق أن يكون ذلك الرجل المخيف والزاعق طوال الوقت .

في غرفته التي أعطيت له كونه أحد ضباط الصفّ، يضع خمّاس زجاجة الويسكي تحت سريره، وعندما يعود من ساحة التمرين يغلق عليه الباب، ثم يسكب نصف كأس ويمزجه بشراب الصودا مع قطعتي ثلج، يسترخي على السرير، يتناول جرعات من كأسه ثم يمد يده إلى علبة المخلل التي يضعها دائما على طاولة صغيرة بجوار السرير ويتناول قطع المخلل ويلقيها في فمه .

كأس واحدة تكفي لكي يبتعد ذلك الضجيج اليوميّ الذي يملأه، يضع رأسه على المخدة ويغمض عينيه، يفكر في زوجته وبناته الخمس، عائلته التي تسكن بعيدا عنه في تلك القرية الساحلية، في بيته المجاور لأخوته، في القارب الذي ينتظره ليتوغل به إلى أعماق بحر عمان، باحثا عن أسماك الجيذر والسهوة، يغمض عينيه منتشيا من تأثير الشراب ثم رويدا رويدا يرحل إلى بحار النوم العميقة .

قال لهم المدرب، سيكون لكل واحد منكم مكانه وموقعه في هذا الطابور، لابد أن يحفظ الجنديّ اسم وشكل الجندي الذي على يمينه والذي على يساره أيضا، اختار أطول الجميع ليكون رأس الطابور ثم وزع الأمكنة بالتريب على الجميع الأطول ثم الأقصر منه وهكذا .

بعد أن أكمل مهمة ترتيبهم، طلب من الطابور الدوران إلى اليمن والذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة .

لا أحد يمر من هنا دون أن يصطدم بالمدرب خمّاس المشتطّ، ولن ينسى الجنديّ الذي سيتخرج صورة وصوت هذا المدرب، بل سيعيد فضل نجاحاته مستقبلا له، فهو صارم وحازم في تدريبه، لا يقبل بالكسل ولا التواني، لا يقبل بالفوارق الجسمية والقدرات في صفوف الجنود .

يريد أن يراهم وكأنهم شخص واحد، يصرخ فيهم، أريد أن أسمع وقع خطواتكم على ألآرض وكأنها ضربة قدم واحدة، يضرب الجند بأرجلهم، يرفعونها ثم يضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة، فتتردد الأصوات على جدران البنايات القريبة، لكن لم تُقنعه بعد، يشعر بضعفهم، ضرب أرجلهم على الأرض ليس كما ينبغي، يقول لهم ليس هكذا يضرب الأبطال الأرض، أنتم نساء، يضرب بقدمه الأرض فيسمعون

لحذائه وقعا أكبر مما لو ضربوه بأنفسهم، يكرر معهم الأوامر، لا يتعب، ولا يترك التعب يدخل إلى نفوسهم .

بين كل تدريب وآخر يجلس المدرب مع تلاميذه تحت ظلال النخيل المزروعة حول الميدان، يقتربون منه، يتجاذب أطراف الأحاديث مع بعضهم، ويطلق السخرية على البعض ولكن بحذر المدرب الذي يدرك ما يفعل، وفي كل مرّة يدخل في نقاش مع أحدهم، باحثا في شخصياتهم ومستقرئا لقدراتهم .

لاحظ المدرب بأن عبدالله الصربوخ يجلس دائما على طرف المكان، لا يدخل في نقاشات جانبية مع زملائه، سارحا ومفكرا، فناداه ذات يوم، طلب منه الاقتراب من الدائرة، وقف عبدالله بين زملائه، سأله المدرب :

ـ تعرف تغني ؟

ـ لا سيدي .

ـ ولا جربت من قبل ؟

ـ لا سيدي، ما جربت .

ـ خلاص، غني لنا شوية، جرب تغني أي شيء سمعته .

ـ حاضر سيدي .

بدأ الصربوخ في استحضار إحدى أغاني أبو بكر سالم، كان صوته نقيا، حاول تقليد المغني، الجميع صمتوا في تلك

اللحظة، شعر الصربوخ بوحدته في ذلك العالم، لم يكن هنالك إلا صوته فقط، ولم يكن لينظر إلا إلى نفسه وداخله .

بعد إن انتهى من غناء المقطع الذي يحفظه، ضجّ المكان بالتصفيق، نظر إليه المدرب نظرة لم يفهم الصربوخ معناها، لكن قال له بعد ذلك :

ـ الحياة ما محتاجه انك تعق بعمرك بعيد، عجبني صوتك .

هو هكذا، خمّاس المشتطّ، يسألك أسئلة لا تتوقعها، يطلب منك أمورا ليست في حسبانك، ليس عليك إلا أن تطيعه، يدرك بحاسته السادسة من أنت، يقرأك بعينيه، ويختبرك في حديثك، ثم يعلق على كل ما حدث بجملة مقتضبة، ويترك لك مفاتيح الحياة تختار منها ما شئت .

خمّاس المشتطّ، الجنديّ الذي شارك في حرب الجنوب، وعاش التحولات في النظام العسكريّ، لم يحصل على شيء مما حصل عليه أصدقاؤه من الترقيات والرتب العليا، فبعضهم الآن وصل إلى رتبة مقدم، وهو ما يزال برتبة رقيب .

خمّاس المشتطّ، الجنديّ الذي يدرك أسرار التحولات الكبيرة، مع هذا لا يتحدث عنها مع أحد، يكفي أنه يدرك ما الذي فعله في تلك الفترة، من كان أصدقاؤه الذين يقف الآن أمامهم ويلقي عليهم تحية العسكر ويناديهم سيدي لسبقهم له

بالرتبة، ولأن خمّاس المشتطّ يدرك كل ذلك فهو لا يتداخل معهم أيضا في أمورهم اليومية إلا ما ندر .

مدير نادي الضباط، الشاب الإنجليزي مارك نيكون، الذي يعرف المدرب خمّاس المشتط مذ كانا في الجنوب، الشاب الهادئ صاحب الابتسامة التي لا تفارق محياه، هو الذي كان يسرب زجاجات الويسكي إلى غرفة خمّاس، وأحيانا في بعض أوقات الإجازات يأتي لزيارته ولشرب بعض الكاسات برفقته .

عندما تستمع إلى المدرب خمّاس وهو يتحدث الإنجليزية، لا تتوقع أن تستمع إلى نبرة رجل عربيّ، فمخارج الصوت لديه متقنة في اللغة، وبنبرة بريطانية يجيد حديثها بطلاقة، ربما يعود الفضل للبدايات عندما التحق خمّاس المشتطّ إلى الجيش، كان المدربون من الإنجليز، وكان الضباط الكبار أيضا منهم، فوق هذا كانت لغة المعسكر الرسمية والطاغية هي اللغة الإنجليزية .

أتقن خمّاس اللغة بالممارسة، لا يجيد القراءة ولا الكتابة، يتحدثها بطلاقة من ولد في بلد غير بلده التي يتكلم فيها لغة أخرى .

بروحه المرحة، وبقوة شخصيته التي تسيطر على من يتعرف عليه، استطاع خمّاس كسب معارف وثقة من حوله، كان

رجلا مجتهدا ومتفانيا في عمله، كسب احترام الوقت والعمل عن الإنجليز، وكان له الأثر الكبير أيضا في تعليم احترام الوقت للجنود بعد ذلك .

ظلّ خمّاس على اسمه، لم يغيره طوال حياته، يتعجب من بعض ممن غيروا أسمائهم حبا في التغيير أو خجلا منها، يقول :

ـ الاسم علامة، ختم على جبين الانسان من يوم صغير، حياة، كيف أشطب كل هذا من حياتي وأغير اسمي؟.

تغيرت الظروف بعد ذلك، الكل يريد أن يوهم المجتمع المحيط به أن الناس سواسية، ليس هنالك خدم وعبيد وليس هنالك عرّابة أو أسياد، البعض غيروا أسماءهم والبعض الآخر غيروا نمط معيشتهم وانتقلوا من الأحياء التي كان يتجمع فيها السود إلى مجتمع القبائل، ومع القانون المدني الجديد بإلغاء العبودية ومسماها وأي شيء يتصل بها، صار المجتمع في حذر شديد من الوقوع في القضايا التي تتعلق بذلك القانون، وبالتالي مارسوا مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم بحذر شديد .

إلا خمّاس المشتطّ، فقد كان حرا من الداخل، هكذا كان يشعر، لم يغيّر اسمه ولا موقع سكنه، لم تكن تعنيه هذه التحولات، حتى عندما تقاعد من خدمته العسكرية وعاد إلى قريته، انشغل في أموره الحياتية اليومية ولم يفكر في تغيير نمط المعيشة التي تعود عليها .

في يوم من الأيام جاءت إبنته الكبرى لتطلب منه مساعدتها في استخراج بطاقة شخصية لها، وذلك لمتطلبات تسجيلها في الجامعة، ولكن طلبت منه أن يذهب للشيخ ويغير اسمه من خمّاس إلى خميس، فهي تخجل أن يناديها الناس بالجامعة بإبنة خمّاس، ضحك خمّاس يومها ورفض طلب إبنته، قائلا لها :

ـ الفضيحة ما في الاسم يا بنتي، الفضيحة في الأخلاق.

في قريته الساحليّة في الباطنة، كان لخمّاس المشتطّ برنامجه الخاص الذي يرتب له ويقضي فيه إجازته الاسبوعية، ففي النهار يصحو منذ الصباح الباكر ليذهب بقاربه إلى أعماق البحر، تستغرق رحلته هذه خمس إلى ست ساعات، ثم يعود إلى بيته بما اصطاده من أسماك، سيتلذذ ببعضها على وجبة الغداء، بعد ذلك يجلس الظهيرة مع عائلته الصغيرة وأحيانا يخرج ليزور أقاربه في الجوار، وإن كان هنالك متسع من الوقت مرّ على سوق القرية المقام بجانب الشاطئ وجلس هنالك قليلا متبادلا الحديث مع بعض معارفه . في المساء يخرج خمّاس إلى أطراف القرية هو وثلاثة من الرفاق، يجلسون تحت شجرة الغاف الكبيرة، يخرج زجاجة الويسكي من سيارته ويبدؤون في الشرب حتى منتصف الليل، بعدها يعودون إلى بيوتهم .

مع الأيام عرف المكان الذي تعود أن يقلّ خمّاس المشتطّ وندمائه بغافة خمّاس، حتى بعد أن توقف خمّاس عن الشرب وذهب في حافلة المطوّع شيخان الملهوف، والذي عرض أن يأخذه إلى الحج دون أن يدفع له بيسة واحدة، قال له :

ـ ما أبغى عليك شي، عسى اللّه يتوب عليك ويهديك .

طرأت التحولات الكبيرة على القرية الساحلية، وظهرت بنايات عالية ومشاريع ضخمة في مكان الغافة، لكن الأهالي مازالوا يطلقون على المكان غافة خمّاس .

خمّاس الذي أصبح صاحب عمامة كبيرة وبيضاء، يذهب متأنيا كل يوم إلى المسجد، وصار يقضي وقته بالقرب من البحر .

في ضربة حظ كبيرة، عمل فيها خمّاس المشتطّ كسمسار لبيع مزرعة كبيرة، كسب منها مبلغ ثلاثة ملايين ريالا عمانيا لإقناعه صاحب المزرعة ببيعها على مستثمر خليجيّ، والذي اتفق معه على المبلغ إن وافق صاحب المزرعة على البيع، وفعلا تمت البيعة بينهما بوساطة خمّاس المشتطّ، والذي أودع مبلغه مباشرة في البنك وراح يخطط بعد ذلك لبناء منزل جديد وشراء سيارة ومزرعة صغيرة وقارب جديد .

دخل عبدالله الصربوخ في عالم جديد لم يعهده في بيته، هنا عليه أن يكون شخصا مختلفا، هو مسيّر على حسب هوى المدرب، لا وقت لديه، الأوقات كلها مقررة سلفا من قبل المدرب ويحق له أن يلغي ما يشاء من البرنامج وأن يضيف ما يشاء، هنا يأتمر بالأوامر العسكرية، ولابد أن يطبق ما يؤمر به دون نقاش ولا جدال، أن يطلب الإذن لأي شيء يريده وينتظر الإجابة، هو هنا مملوك على أمره، حركاته وسكناته ليست له، ولابد له أن يتعلم قانون الضبط والربط العسكري بحذافيره وإلا فعليه أن يذوق العقوبة التي تُقرر عليه .

كثير ما تخطر في باله ابنة خاله، خصوصا عندما يضع رأسه لينام، كان يتحدث معها عمّا تعلمه في يومه، يتحدث عن عذاباته وصبره في سبيل تخرجه والزواج منها، يغمض عينيه ويرحل إلى قريتها، يتذكر كل تفاصيل لقاءاتهما القديمة، ثم يغرق في عالم النوم، تأخذه الأحلام إلى عوالمها المخملية، ولا يصحو إلا على صوت المدرب :

- طابووووور طابووووور

منذ الأسبوع الأول ستعتاد على النظام والقوانين العسكرية، عليك أن تصحو مبكرا وأن تركض، أن تأكل وجبة الأفطار وتركض، ثم عليك أن تذهب للتمرينات راكضا

وتعود منها راكضا، عليك أن تنظف مع رفاقك الثكنات، وعليك أن تنام قليلا ثم تصحو لتركض من جديد .

إن صراخ المدرب دائما يطن في أذن عبدالله حتى بعد أن تخرج وعمل في أمكنة مختلفة، ما زال يسمع صوت المدرب يتردد في مخيلته، يراه قادما بملابسه الرياضية ليصرخ عليهم باوامره، وعليهم أن يطيعوه جميعا، وإلا عوقبوا جميعا أيضا، لأن العقاب الفردي ليس واردا إلا في أمور محدودة، لكن عندما يتأخر أحدهم او لم يكن يؤدي التمارين بشكلها الصحيح، يعاقب المدرب الجميع بالركض حول ميدان التدريب أو حول المعسكر.

عبدالله الصربوخ الذي التصق به هذا اللقب منذ الأيام الأولى في التدريب، كان يحاول بطريقته إشعال النار عن طريق احتكاك حجرين ببعضهما، تحلق حوله رفاقه، فلفت ذلك انتباه المدرب الذي جاء من خلفهم ولاحظ ما يفعله عبدالله، حتى أشعل النار. حينها سأله المدرب ماذا تفعل ؟ قال له : أحك حجري الصربوخ ببعضهما لأشعل لكم نارا في هذا الشتاء القارس . ومنذ ذلك الحين صار المدرب كلما وجه الأوامر إلى عبدالله يقول له هيا يا عبدالله الصربوخ أو هيا يا صربوخ، حتى التصق اللقب به، وصار الجميع ينادونه أما باسمه واللقب معا أو

باللقب منفردا ، ومع الوقت نسي الكثيرون اسمه وصاروا ينادونه بلقبه فقط .

في المساء تبدأ الحياة في الفرقة ، يتجمع الكثير منهم حول بعضهم البعض، يلعبون الكوتشينة أو يستمعون إلى نكات تتقاذف من هنا وهناك .

رفاق الثكنة الواحدة ، أو أحيانا من يدخل معهم من الثكنات المجاورة ، يسهرون في سرد حكاياتهم ومن أين جاءوا ، البعض لديه المقدرة في سرد الحكايات حيث البقية ينصتون إليه .

فتح سعيد خلوف حكايته عندما سأله خلفان صبيح :

ـ من هين انته سعيد .

ـ أنا من لحجور .

ـ من أي مكان فلحجور ؟

ـ من بلاد صغيرة تكون غربى بهلا .

القرية التي صورها لهم سعيد خلوف تقع على سفح جبل وتطل على الصحراء من جهة الغرب، بينما يحتضنها الجبل من الشرق، قرية يمتهن أهلها تربية الإبل والزراعة في آن واحد ، أخذوا طبيعة القرويين والبدو ، لهم امتداد النسب في الصحراء ،

ولهم قرابة كبيرة في قبائل الحجر، لكنهم لم يتخلوا عن خصوصيتهم البدوية .

ـ يقولوا أصلنا من بلاد في الربع الخالي يسمونها حبة القهوة، أنا ما وصلتها لكن أبوي يقول لون رملتها خضرا داكنة .

يصف سعيد خلوف حبة القهوة التي سميت بهذا الاسم لوجودها بين تلين رمليين كبيرين، لون الرمال حولها ذهبيّ لكن هذه المنطقة فقط خضراء داكنة، كانت تأخذ شكل حبة القهوة للناظر من فوق إحدى هذين التلين.

تسمى قرية سعيد خلوف بنت الغاف، ولا يدري لماذا أطلق عليها هذا الاسم برغم أنه ولا غافة قريبة منها، يضحك سعيد وهو يقول :

ـ يمكن بو سماها يقصد غاف الربع الخالي .

ـ ماشي غاف في الربع الخالي . يجيبه طارق

ـ شي غاف واجد، تحت الرمل .

يضحك الجميع، تدخل الحكايات في بعضها، تتشابك، تتداخل الأصوات، ينسى الرفاق لحظات التعب التي مرّوا بها في يومهم، بعد ذلك يقوم الجميع ليخلدوا إلى النوم، منتظرين فجرا جديدا وتدريبا أخرا .

سالم سحلوف، أو من يطلق عليه الرفاق المهركة، لشهيته العجيبة في الأكل، وبالمقارنة بجسده النحيف، غير أن سالم سحلوف لا يتوقف عن الأكل بل ينتقل من صحن إلى آخر، ينتظر ما يتبق في صحون زملائه ويقفز إليه أو يطلب منهم إحضاره ناحيته، وفي مسابقة غريبة بينه وبين أحد الأكولين أيضا، كان الإختبار على من يأكل أكثر عدد من الساندويتشات في المقهى المجاور للمعسكر، وعلى من يأكل أقل أن يدفع الثمن . يومها أكل سالم سحلوف خمسا وعشرين ساندويتشة، في حين توقف الآخر عند الخمس عشرة، وبعد لحظات لم يستطع الاستمرار في التنفس طبيعيا، ثم ركض ليخرج ما في بطنه خلف المقهى، لكن سالم سحلوف قال لزملائه بأنه كان لديه المقدرة في الاستمرار حتى الثلاثين .

يتذكر الصربوخ زميله في أيام التدريب سالم سحلوف، ويضحك، كان سالم بن عمران الشنيني، والذي لم يناديه أحد بسالم عمران أو سالم الشنيني قدر ما عرف بسالم سحلوف، لنحافته الشديدة وطوله الفارع، يتذكر سالم منذ اليوم الأول لأنه كان رأس الطابور، هو الذي يقودهم وهم يمشون من خلفه، وأيضا لأن المدرب خمّاس المشتط هو الذي أطلق عليه لقب سحلوف وهو يناديه :

ـ انته هناك، من أسمك ؟

ـ سالم عمران الشنيني سيدي .

ـ لا، أنا ما محتاج كل هذا، تعال يا سحلوف، انته سالم سحلوف، فاهم والا لا ؟

ـ فاهم سيدي .

مرت الأيام سريعة، مرّت الأيام متشابهة، ففي كل يوم هنالك تمرين جديد، وهنالك أوامر جديدة، يتذكر عبدالله الصربوخ رحلة طلوعهم سفوح الجبل الأخضر كواحدة من التمرينات التي على الجنديّ أن يجتازها، لم تكن الجبال بجديدة عليه هو إبن القرية الجبلية الكائنة على سفوح الجبال، ولكم صعد متسلقا اياها في صباه .

كان صعودهم إلى قمة الجبل الأخضر في شهر ديسمبر، في تلك الفترة من السنة، الشتاء كان قارسا، البرد على أشده بسبب الأمطار التي سبقت الموسم، هطلت الأمطار لمدة اسبوع، مما أدى إلى هبوط درجة الحرارة وبالتالي زيادة تيارات الهواء الباردة والجافة القادمة من الصحراء .

في الصباح كانت المياه تتجمد في صنابير المعسكر، وكان البرد يدخل في مسام الجسم، أوقد الرفاق نيرانهم الصغيرة وتحلقوا حولها، سخنوا الصنابير بالنار لتنزل لهم

القطرات من الماء ليتوضؤون بها صباحا ، كان شهر لا ينسى أبدا من ذاكرة الجميع .

كان طارق الأول على دفعته في كل التمرينات العسكرية ، كان أول من يفكك بندقيته وينظفها ثم هو الأول في اعادة تركيبها ، أيضا كان الأول في الرماية وفي الركض وفي السباحة وفي التمرينات الحسابية التي تختص بأمور المساحة والبوصلة وتحديد المواقع، لقد أبهر المسؤولين عن التدريب في كل المجالات، حتى أنه عندما الحق بدورة في الاشارة مع أشخاص آخرين كانوا أقدم منه في هذه الخدمة حصل على مرتبة الأول، مما جعل البعض من رفاقه يحسدونه على ذلك، ولكن أولت القيادة العسكرية اهتمامها به، وعندما أكمل تدريباته العسكرية وتخرج مع الجميع، وبعد أن قضى إجازة التخرج مع أهله في القرية ، تم إرساله ليكمل تعليمه الجامعي والعسكري في جامعة سانت هيرس العسكرية البريطانية .

ترقى طارق في سنوات قليلة حتى وصل إلى رتبة نقيب، في حين ما زال زملاؤه جنودا ، والعجيب في الأمر أنه عندما عاد من دراسته في بريطانيا كان رجلا متحدثا لبقا وضحوكا ، يمزح ويحادث الجميع .

كان لوجوده معنى جميلٌ في نفس عبدالله، هذا الولد الصامت كان يحمل في ذاته كنزا من جمال تدفق مع الأيام ولم ينسَ أبدا أصله ولا أصدقاءه، بل كان كلما وجد فرصة للالتقاء بهم جمعهم وسهروا جميعا حتى الصباح .

الثكنات العسكرية تصطف عند بعضها مثل طوابير العرض العسكريّ تماما، تأخذ لونا بنيا فاتحا قريبا من لون الأرض، وضعت على بواباتها أرقامٌ وأسماء، كل شيء في النظام العسكري لا بد أن يكون مرتبا، شكل المبنى الخارجي، لون البنايات، صفوف الأسرة داخل الثكنات، النظافة وقوانينها، مواقيت الطعام والنوم والتدريب، طريقة المشي داخل المعسكر، قوانين التحيات العسكرية للأفراد والضباط، توزيع المساكن حسب الرتب ومميزات الأندية والمطاعم، كل شيء محكم ومرتب، كل شيء وضع حسب تخطيط مسبق، لا شيء يوجد داخل المعسكر بلا جدوى أو بدون فائدة .

أدرك عبدالله منذ الأيام الأولى التمييز الذي يوجد في النظام العسكري، فهنا التمييز ليس على حساب القبلية ومكانتك وبيتك في هرم القبيلة، بل لوضعك ورتبتك العسكرية، فمطاعم الجنود منفصلة وعامة، وطاولات الأكل

فيها طويلة وكراسيها خشبية أشبه بالمصاطب، الجميع يأكلون مع بعضهم البعض، يتحلقون حول صحن الأرز ويقفون في طوابير منظمة كل حسب دوره، لكن مطاعم وأندية ضباط الصف الأعلى مرتبة من الجنود نجدها بطاولات قصيرة مستديرة موزعة في المكان بطريقة جمالية مريحة، في حين لكل شخص كرسيه المنفرد بساعدين خشبيين جميلين، وفي وسط النادي هناك صالة للترفيه، يلعب فيها لعبة البيليارد أو كرة الطاولة، ثم يأتي النادل إلى مكان جلوسك، يسجل لك وجبتك حسب الطلب، أما في أندية الضباط الكبار فالوضع يختلف تماما وكأنك تقارن بين أحد الفنادق العادية في وسط المدينة وفنادق الخمس نجوم من حيث الخدمة المقدمة ومن حيث تصميم المكان وطرق الترفيه الموجودة .

أدرك عبدالله بأن ترقيته لن تكون بسبب الخبرة وإجادته للعمل، بقدر علاقته بالمسئولين وإلى أي طبقة ينتمي، فإن كان أحد أبناء شيوخ القبائل الشهيرة والذلئعة الصيت، فبإمكان هؤلاء المشايخ رفع توصية إلى القيادة لترقية أحد أبنائهم أو من يرغبون له من أقربائهم .

لم يكن لدى الجميع شهادات دراسية عليا ،كان معظمهم يحمل شهادة ثالث ابتدائي أو سادس ابتدائي بالأكثر، لذلك

كان حظ من عنده شهادة إعدادية هو إرساله لدورة الضباط والتي تستمر لسنتين من التدريب الميداني والدراسة الأكاديمية، كان هذا حظ بعض الأشخاص الذين حصلوا على هذه الشهادة في ذلك الوقت، ولكن حتى من لديهم هذه الشهادة كانت تقابلهم أيضا مشكلة أن نسبة قبولهم في دورة الضباط كانت ضئيلة جدا، في حين أنهم يدركون تماما أن هنالك كثيرا من أقرباء الضباط الكبار يجتازون هذه الاختبارات بطريقة شكلية، بغظ النظر عن مستواهم المعرفي والدراسي، والمهم أن توصيته تكون من النوع الثقيل حتى يرتقي سلم الوظيفة قافزا من معاناة الجندي الذي يتكدّس مع زملائه في ذات الثكنة الطويلة إلى ضابط له امتيازاته في كل مكان .

الكل يتحدث عن هذه الأمور داخل المعسكر ولكن بحذر. يتناقشون فيما بينهم عندما يغيب الرقيب، وعندما يخلو المكان من الضباط، لم يكن همهم في البدء سوى ملء أياديهم بورق النقود في آخر الشهر ليعودوا إلى أهلهم وهم يحملون بشارة أنهم يستطيعون بعد ذلك أن يعيشوا حياة كريمة، الجميع يقنع في النهاية بحظه ورزقه، فالجميع أيضا خرجوا من بيئة يكون الدين فيها محركا أساسيا في استمرارية الحياة .

أن ترى مع السنين بعضا من رفاقك وهو يقفز من رتبة إلى رتبة حتى يصل إلى أعلى رتب كبار الضباط دون أن يدخل حربا ودون أن يقدم شيئا مهما للنظام العسكري، بل دون أن يكتب حتى رسالة ورقية تنفع الجميع، إنما فقط، لأنه يجيد التسلق كما يجيد التملق ويعرف من أين تؤكل الكتف كما يقال، هنا يضرب به المثل لدهائه وذكائه وحنكته، وهو في الحقيقة أجوف من الداخل، لا يعني شيئا لرتبته ولا لمكانته، تنقصه الثقافة والخبرة، ينقصه العقل المدبر، لا يرى في الحياة إلا كومة النقود التي يجب عليه أن يستفيد منها وتلك الامتيازات التي مع الوقت تصبح حقا مكتسباً له .

في المرة الأولى التي يمسك فيها عبدالله بيده مئة وخمسين ريالا مرة واحدة، دق قلبه بعنف، ارتبك ولا يعرف ماذا سيفعل بها في البداية، أين سيضعها، لم يكن نظام البنوك قد اسس بعد، كان يأخذ راتبه من الضابط المسئول مع رفاقه، كان لزاما عليه أن يقف في الطابور ويدخل على الضابط ويلقي عليه التحية العسكرية ثم يحسب له نقوده ورقة ورقة وبعدها يوقّع على ورقة استلام . خرج من مكتب الضابط وهو يمسك بالنقود في يده، أين سيضعها ؟ يخاف أن يتركها في صندوقه في الثكنة، فهو يدرك أن بعضهم برغم أنهم اجتازوا التدريب

العسكري وأقسموا على العهد بأنهم سيحمون هذا الوطن ويحافظون على عهدهم لكنهم لن يتوانوا عن سرقة ممتلكات الآخرين، ولم يكن النظام سيحميه لو سرقت نقوده، بل سيكون موضع سخرية من رفاقه والضباط، وعليه أن يقرأ القرآن كاملا على نقوده، لذلك قرر أن يضعها دائما في جيب بنطاله وأن يغلق عليها الجيب جيدا ثم عليه أن ينقلها بحذر عندما يبدل ملابسه، انتظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر حتى يأخذ نقوده إلى البيت ويعطيها لوالده .

في وسط الأسبوع سمح لهم الضابط أن يخرجوا إلى السوق، وفر لهم حافلة تقلهم وتعيدهم .نزل مع رفاقه، اشترى بعض الهدايا لأخوته ولم ينس أمه وأباه، واشترى بعض الاحتياجات اللازمة له، كان عبدالله من الشباب المتقشفين والذي لا تعنيه النقود كثيرا، لا يعرف كيف يصرفها أو فيما يستنفع بها، لذلك قرر من البداية أن يعطيها لوالده وأن يأخذ مصروفه البسيط منها فقط، لأنه عندما يكون في العمل لا يحتاج إلى نقود، فأكله وسكنه ولبسه كله بالمجان، لذلك عليه فقط أن يأخذ بعضا من النقود للتنقل، أو في بعض الأيام التي يسمح لهم بالخروج من المعسكر كي يتعشى مع رفاقه في أحد المطاعم بالخارج .

يتذكر صديقه طارق الذي أختفى فجأة ولم يَعرف له مكاناً ولا سيرة، بحث عنه في عمله وبين أقاربه، لكنه لم يسمع خبرا أكيدا عنه، البعض قال إنه مات في حادث سير وهو قادم من صلالة، لكنه يستبعد ذلك، كيف يموت شخص ما من قريته ولا يعرف عنه شيئا ؟ ثم أن معظم أهالي القرية الذين يسكنون في مسقط عندما يموت لديهم قريب، يجيئون به ليدفن في قريته .

اختفى طارق إلى الأبد، فمثل ما كان صمته لغزا، وتفوقه ونبوغه ثم تغيره المفاجئ لغزا آخر، صار اختفاؤه لغزا أيضا . ذلك الصديق الذي رافقته الألغاز منذ البداية، هو الآن بعد أن تقاعد لا يعرف عنه شيئا، هل هو حيّ أم مات كما يقولون .

الكثيرون من معارفه يختلقون قصصا عجيبة عنه، البعض منهم يدعي بأنه خان وطنه وأصبح جاسوسا لإحدى الدول المجاورة، وعندما كشفت حقيقته أعدم جزاء خيانته، البعض الآخر يقول بأن الأجانب عرضوا عليه أن يعمل معهم لذكائه لكنه رفض ذلك، مما أضطرهم إلى التخلص منه حتى لا تستفيد الدولة من عقله، وقصص وحكايات يزيد فيها من يزيد وينقص فيها آخرون، ولكن أين طارق الآن ؟، لا أحد يعرف .

عندما دخل عبدالله على الضابط المسؤول عن طارق بعد أن توسط له أحد معارفه لمقابلته، سأله عن صديقه فتغيرت نبرة صوته، وتغيرت ملامحه، بدا متوترا ومنزعجا، وكأن سؤاله عن صديقه قد فجر شريانا في داخل الضابط .

قال له :

ـ ما نعرف عنه شيء، دورنا عليه وما لقيناه .

يقول عبدالله لنفسه : إن كان كلام الضابط صحيحا فلماذا ظهرت عليه علامات الارتباك، لماذا تأتأ في حديثه في البداية قبل أن يسترسل بعصبية متحدثا عن صديقه، يدرك في قرارة نفسه بأن في الأمر سرا ما لكنه لا يعرفه .

طارق الذي حكى له عن الأوروبيات وعن الحياة وعن الحرية، طارق الذي صادق إحداهن وبدأ يذهب إليها كلما وجد فرصة لذلك حتى جاءت وسكنت معه في شقته التي استأجرها في الخوير، طارق الذي لا يبدو أنه يكترث بما يحدث من حوله، وطارق الذي يحمل له في قلبه حباً وتقديراً كبيرين منذ طفولته، لا يعقل أن يختفي دون أن يحيطه بما يخطط له .

" '

(10)

عندما اقتربت السفينة من دبيّ دقّ قلبه بشدة، رأى سفينة النوخذة محفوظ، انها السفينة ذاتها التي ركب فيها لأول مرّة، هي ذاتها بصواريها وعلمها الذي يرفرف عاليا، ترى هل يكون النوخذة محفوظ هنا، هل عاد من الشمال أم هل سيواصل الرحلة معه، النوخذة عرض عليه ذات مرّة أن يعمل معه فهل عرضه لا زال سارياً حتى الآن ؟

توقفت السفينة في المرسى، ونزل الركاب جميعا متجهين صوب السوق، توجه سليمان ناحية السفينة، صعد إلى ظهرها واتجه مباشرة إلى أحد البحارة الموكلين بحراستها، سأله عن النوخذة فرد عليه بأنه في ضيافة شيخ دبي، دلّه على الدرب فذهب في الحال حتى وقف أمام بيت الشيخ، وهناك أخبر العسكري الموكل بحراسة البوابة أنه يود أن يقابل النوخذة محفوظ الذي هو في ضيافة الشيخ، نادى العسكري على أحد الخدم بالداخل فجاء مسرعا، أمره بالمضيّ معه، فتبعه، دخل الحصن الكبير ثم وقف على باب المجلس وسلّم على الجميع، كان المجلس غاصا بالضيوف، وكان الشيخ يجلس في الصدارة والنوخذة جالسا بجانبه .

تعجب النوخذة من رؤية سليمان واقفا عند الباب، قام واقفا وكأن شيئاً ما قد لدغه :

ـ سليمان ؟ أنت حيّ ؟

تعانق الرجلان وسلّم سليمان على الحضور جميعا، صافحهم واحدا واحدا، وعندما انتهى سحبه النوخذة ليجلس بجانبه ويعرّف عليه الشيخ،

ـ هذا ذيب البحر .

ـ قال له : سمعنا عنك واجد .

مكثوا أسبوعا كاملا في دبي، اشتروا كثيرا من البضائع، وبدأ المسافرون في حمل ما اشتروه إلى السفينة، قرر النوخذة أنهم سيتجهون إلى صحار وينزل المسافرون هناك ثم سيتجه إلى الهند .

عادت الروح من جديد إلى سليمان، الروح التي فارقته منذ أن خسر معركته في البحر، وبعد أن شارف على الهلاك، لم يكن يهتم بشيء أبدا ، بدت له روحه أنها قد فارقت جسده منذ زمن، وأن ما يشعر به من فراغ ووحشة نتيجة لفراغ ذلك الجسد.

لكم شعر بموته ونهايته، لم يكن يستلذ ماءً ولا طعاما ، لم يكن يحلم بشيء، حتى أحلام الليل لم تكن تواتيه، كان أشبه بشبح فقد القدرة على العودة للحياة والقدرة على الذهاب إلى عالم الأموات .

لكنه الآن وقد عادت له الحياة بكل ضجيجها منذ أن قابل النوخذة في دبي، ها هو يعمل بجهد وبحب ليكون البحار الذي توكل إليه الأمور .

بدأ النوخذة في تعليمه أسرار البحر والسفر فيه، علمه كيف يستقرئ النجوم في الليل ليعلم أي اتجاه يسلك. علمه كيف يستفيد من حركة الرياح وسرعتها ، وعلمه كيف يمسك بالدفّة وكيف يكون ربّان سفينة تليد .

تعلم كل تلك الأشياء وغيرها بسرعة، اطمأن النوخذة لحاله في السفينة، خصوصا عندما أيقن أن لديه من يثق به ومن يستطيع في أقسى الظروف أن ينقذ السفينة وركابها ويصل بها إلى برّ الأمان .

عادت السفينة أدراجها إلى ساحل عمان، مرّت على هرمز ثم رست ليومين عند بندر عبّاس، ومنها أبحرت مرّة أخرى إلى خصب، وبعدها استمرت حتى وصلت إلى صحار .

رست السفينة في صحار، هبط المسافرون جميعا، أنزلوا ما حملوه من بضائع وحاجيات، امتلأ الشاطئ بالناس، دقوا الطبول وصدحت الأهازيج والأغاني استبشارا بقدوم المسافرين، عانق القادمون أهلهم وأقرباءهم بحرارة، وبعد أسبوع من رسوّ السفينة قرر النوخذة أن ساعة إبحارهم قد حانت .

لا يجد البحارة وقتا للراحة في السفينة إلا قضوه في النوم، لترتاح أجسادهم مما يعانونه من تعب، لكن سليمان كلما جاءت فترة استراحته اتجه إلى حيث يجلس النوخذة ويدخل معه في حواراته الطويلة وأسئلته التي يستفسر بها عن كل ما يحتاجه من أمور البحر .

أدرك النوخذة أن سليمان يحب أن يعرف كل شيء، وأنه يحب الحكايات التي يرويها عن سيرته البحرية الطويلة، لذلك

كان يدخله في عوالمها الأسطورية، فما يلبث أن ينتهي من حكاية إلا ويدخل في حكاية أخرى. حكى له عن سفره إلى أقاصي الصين، وعن الصينيين وعاداتهم، وعن النساء الصينيات ذوات القدود الرفيعة والقامات القصيرة، حكى له عن معابدها وزخارفها، وأطلعه على بعض النقوش والزخارف التي يحتفظ بها في سفينته تذكارا وهدايا من أصدقائه ونسائه هناك.

كانت الطريق تنفتح مشرعة أبوابها لسليمان وهو يرى الصين قاب قوسين أو أدنى من الأفق الذي يحد الرؤية، سوف يصل إليها ذات يوم، وسوف يرى كل ما حكى له النوخذة بأم عينيه، بل تمنى أن يطرق أرض الصين ويجتاز أنهارها متنقلا من مكان إلى آخر.

تذكر العاصفة التي واجهتهم في بحر العرب قريبا من حضرموت، كانت الرياح على أشدها، أنزلوا بعض الأشرعة، وصلّوا كثيرا كي ينجيهم الله من تلك المحنة، تذكر شكل الموج وهو يحيط بهم من كل مكان وكأنه جبال، لكن الجميع عملوا بكل قوتهم حتى لا تغرق السفينة، كان البرد قارسا، ولم يكن لديهم خيارات كثيرة، إما الاستيقاظ ومحاولة إصلاح ما تخربه العاصفة أو الاستسلام للنوم والهلاك.

يذكر النوخذة أن هذه العواصف كثيرا ما أخذت السفن ليبتلعها البحر، يعرف بعضها لأصدقاء له سافروا إلى شرق أفريقيا أو كانوا قادمين منها إلى عمان، أختفت سفنهم بحمولتها وركابها إلى الأبد، قال النوخذة : الأمر كله وأنت في البحر موكول لقدر الله، أنت لا حول ولا قوة لك، ليس لنا إلا الدعاء، أما حياتنا فهي مرهونة بيد خالقها .

الذي يرى سليمان في القرية بعد ذلك بسنين طويلة لا يدرك أنه يرى إنسانا جاب البحار ووصل إلى الهند وإلى حدود الصين، بل يرى فيه إنساناً هادئاً صامتاً، وفلاحا لا هم له إلا نخيله، لا أحد يتوقع من هذا القرويّ البسيط أنه كان أحد البحارة الذين خبروا البحر على يد أحد أكبر النواخذة الذين قضوا عمرهم كاملا يجوبون البلدان على ظهر سفينة، وهو يدرك ذلك تماما، لكنه لا هم له في عمره ذلك إلا تلك الحياة الهادئة التي يود ألّا يعكرها شيء.

كثيرا ما حلم بالسواحل التي نزل فيها، حلم بنساء عاش معهن لحظات من الحب والجمال، لحظات قد تطول أو تقصر على حسب مقدار الوقت الذي يقرره النوخذة، حلم بهن يأخذنه من تعب البحر إلى أحضانهن ليرقد هانئا قرير العين، وكأن الحياة توقفت هناك على اسرتهن .

نساء سليمان كثيرات، بعضهن في بندر عبّاس والبعض الآخر في أمكنة أخرى على شواطئ الهند أو أفريقيا أو شرق آسيا، كان لكل امرأة رجلها من البحارة، لا أحد يأخذ امرأة صاحبه، وعندما يرحلون، كانوا يودعونهن على أمل أن يعودوا ثانية .

هكذا كان البحر، وهكذا كان بحارته، يغرقون في الزمن البحري لأيام وشهور لا يرون إلا الزرقة تحفهم من كل جانب، بعدها يعيشون الحياة قليلة وصغيرة بكل ضجيجها في إحدى المدن الساحلية، يشترون ويبيعون، ثم يعودون إلى حياتهم السرمدية في الزرقة .

يمازح سليمان زوجته في بعض الأحيان عندما تشتكي أولاده إليه، بأن أولاده في كل بقاع الأرض ولا يسمع من إزعاجهم شيئا، كان يدرك أنه عندما ترك بعض نسائه قد أودعهن وديعة ثقيلة، وكان عندما يعود إليهن يجد أطفالا في أعمار متفاوتة، يعزو ذلك إلى طول أو قصر فترة غيابه عنها، يجد أطفالا يتحدثون بلغة أمهم، لا يعنيهم من هذا الرجل الغريب شيئا إلا ذلك الاحترام والتقدير الذي يقدمونه له، ثم يخرجون إلى العراء، يلعبون ويركضون مع الأطفال الآخرين.

نساء المواني وأطفالهن ذوي الأصول العمانية، يضحك بعض البحارة الكبار في السن، عندما يقول بأنه نقل سلالته إلى مواطن كثيرة من العالم، وأنه السبب في تحسين سلالات كثيرة في أماكن أخرى، يضحك وهو في ذلك السن المتأخر وهو لا حول له إلا غليونه الذي اكتسبه من رحلاته ومذياعه الذي يرصد به أخبار العالم جالسا أمام بيته يرقب المارة في صور أو في إحدى قرى الباطنة الساحلية .

إذن كم من الأبناء والبنات الذين تركهم سليمان خلفه، ابتلع الموج سيرتهم وملامحهم ولا يعرف عنهم شيئا سوى تلك اللمحات في أحلامه التي تأتي وتغيب، تذكره بأنه لم يكن فلاحاً أبداً،

ولكنه بحّارُ عتيد، بحّارٌ جبليّ، خبر البحر وشرب من مياهه وانتصر على الدوار والعواصف .

اليوم الذي أعطاه النوخذة أجرته لم يدر ماذا يفعل بتلك النقود، كان لكل واحد منهم صندوقه الذي يضع فيه احتياجاته وخصوصياته في الغرفة المخصصة للبحّارة، لم يعدّ نقوده، بل أخذها كما هي ووضعها في صندوقه، وعاد ليكمل عمله مع رفاقه .

في رحلتهم الأولى إلى الهند قضوا ثلاثة شهور حتى وصلوا إلى ممبي، هناك كان لزاماً عليهم ترك السفينة في الميناء والنزول إلى المدينة .

انبهر سليمان بما رأى، سمع عن الهند ولكن ما رآه أقرب إلى السحر، الحياة تختلف هنا عن قريته أو عما شاهده في البحرين . رأى البشر بمختلف الأطياف، الزحام في الأمكنة، النساء الجميلات، المعابد والأماكن الأثرية، عشق كل بقعة في مومبي، شعر بأنه يطأ أرض الجنة، تمنى أن ينساه الزمان هناك ويغيب في أرض الهند، يتنقل من مكان إلى آخر، ولكنه بعد أسبوع، أصيب بالحمى، وسقط طريح الفراش لأيام، مما أضطر النوخذة إلى تأجير إحدى الفتيات الهنديات لتطبيبه والجلوس معه .

كانت "شاهدة" إبنة السادسة عشرة، فتاة نحيفة ذات بشرة سمراء، تنحدر من عائلة مسلمة، اختارها النوخذة بفراسة الخبير الذي يدرك ما الذي يحتاج إليه بحار طريح الفراش .

عيناها واسعتان، شفتاها رقيقتان وفمها صغير . تدربت على يد سيدة هندية عجوز كيف تطبب المرضى وتسهر على راحتهم، كيف تأخذهم من فراشهم وتخلع عنهم ملابسهم وتنضح عليهم الماء ثم تدلكهم، تقوم على راحة المرضى وتمازحهم، ولا تتركهم إلا عندما يذهبون عميقاً في النوم .

عندما استيقظ من نومه إثر المهدّئ الذي تناوله، رآها جالسة على طرف سريره، أحست شاهدة باستيقاظه فبدأت تمسد رجليه وقدميه . شعر بشيء يسري في رجليه، شيء يشبه دبيب النمل عندما يتسلق الجسد، كانت تقوم بعملها على مهل، تمسك قدمه وتضغط على باطنها بأصابعها، تفرك أصابع قدميه بلطف، الدم يسري في أقدامه، ارتفعت يدها ودلكت له ساقيه واحدة واحدة، الحمى تنحسر رويدا رويدا، ثمة حرارة مختلفة تسري في جسده .

تعلمت شاهدة بعض الكلمات العربية التي تساعدها للتحدث مع مرضاها، طلبت منه أن يقوم من سريره، فقام، كان ضعيفا ومتهالكا، كاد أن يقع لولا أنها سندته بذراعيها، أخذته إلى خارج الغرفة، وهناك في العراء في فناء الدار الذي استأجرها النوخذة، خلعت عنه ملابسه، لم يمانع في شيء، أدرك أنه بين يدي أمه . رشت الماء على جسده، كان الماء دافئا، فشعر بالدفء يسري في دمه، دلكت جسده وهي تغسله بسائل أخضر له رائحة عطرية جميلة، أجلسته القرفصاء ثم غسلت شعره ودلكت فروة رأسه .

يولد من جديد، في داخله شعور لم يكن يحسه من قبل، راقب حركتها في المكان، انتقالات يديها، مشيتها .

عيناه تلتصقان بعجيزتها المكتنزة وصدرها، تشعله عيناها وحركتهما، يرقبها بصمت، وهي تزرع المكان زهورا وبهجة وخضرة ممتدة إلى البعيد .

سألها عن اسمها فأخبرته، استطاع أن يفهم قصتها وهي تحاول أن تخبره بلغتها المتكسرة . عرف أنها فتاة قادمة من الريف مع عائلتها وأنها تدربت على تطبيب المرضى، وعائلتها تعرف النوخذة منذ فترة طويلة، وأنه وصاها به خيرا، و تقوم على خدمته حتى يصبح معافى من حمّاه .

جلست تدلك له كتفه، أمسك بيدها وضغط على كفها برفق، نظرت إلى عينيه وابتسمت له، أفسح لها مكانا في السرير وطلب منها أن تستلقي بجانبه وأن تغني له كما سمعها في نومه، ومن دون تردد فعلت ما أراده، كانت الدنيا تتفتح أعلى رأسيهما زرقة وطيورا، أحاط بذراعه رأسها الصغير ووضعه على ساعده، أغمض عينيه ورحل مع دقات قلبه .

زاره النوخذة بعد ذلك مرات عديدة، نصحه أن يتزوج شاهدة لأنه رأى في عينيه حالة يفهما كثيرا، خجل سليمان في البداية من كشف النوخذة لصفحة مشاعره، لكنه شجعه وأخبره بأن الجميع يفعل ذلك ولأنه لزامٌ عليه وهو بحار أن تكون له زوجة ينزل معها في رحلاته حتى لا يقرب الحرام .

وبطريقة تقليدية وبسيطة تزوج سليمان من شاهدة، وفي ذات السرير استسلم لها حتى أيقظت في خلاياه كل فورة الحب والشوق .

سقطت ملابسها قطعة قطعة، والتصق جسدها بجسده، شم رائحة جسدها، مسد براحة يديه كل تفاصيله، دخل بحرها، كانت العواصف تهدر، وكان الموج يدفعه إلى البعيد .

ثلاثة أيام وهما لا يخرجان من غرفتهما، يمارسان الجنس، ثم تقوم وتحضر له بعض الحلوى أو شيئاً ما يشربه ثم تعود لتنام بجانبه، عناق متواصل، وسفر مستمر، اكتشف جسدها جزيرة جزيرة، سمى الجزر أسماء جديدة لا يعرفها العالم من قبل، وضع ذكرياته على كل جزء ونقش سيرته العجيبة هناك، وبين الحين والآخر تعنّ القرية في خاطره، يراها بعيدة جدا، يدس وجهه في صدرها ويتنفس بعمق، ثم يضغط على ظهرها محتضنا إياها وينام .

قضوا شهرين كاملين في مومبي، بعدها كان لزاما عليهم أن يغادروها متجهين صوب الجنوب، إلى جزيرة سيلان، عانقته شاهدة وبكت كمن يودع مسافرا إلى غير رجعة، ثم اعتادت على رحيله وسفره فيما بعد، كلما رست سفينتهم في مومبي عاد إليها ليبحرا معا في أرجاء الكون .

(11)

طرق حميد الصابر باب الدار الخشبيّ المصنوع من خشب الساج الأصيل، وانتظر برهة حتى انفتحت كوّة صغيرة في وسط الباب وأطلّ وجه راما الجميل، ابنة التاجر الهندي، بشعرها الناعم وعينيها الواسعتين . اهتزّ قلب حميد عندما رآها ، كان يتمنى طوال الطريق أن تطل هي من خلال الكوّة وأن تفتح له الباب، بدا عليه الارتباك وهو يسألها عن أبيها بلغة مكسّرة :

- وين باباه ؟

وهي تبتسم له وتنظر إلى وجهه المحمرّ خجلا وارتباكا ، هزّت رأسها إيجابا وأغلقت الكوّة ، ثم ركضت إلى الداخل ، تراجع إلى الخلف واتكأ على الجدار قريبا من الباب. شعر بأطرافه كلها ترتجف ، وبالأرض غير ثابتة تحت قدمه .

بعد قليل ، أطلّت راما وهي تفتح الباب كاملا وما زالت ابتسامتها تملأ المكان ، طلبت منه الدخول ، نظر إلى عينيها مباشرة وابتسم لها وهزّ رأسه ثم نكسه .

ذهب حميد الصابر إلى بيت التاجر الهنديّ ليأخذ بعض الأوراق التي احتاجها ابن البدوية في السوق ، لم تكن المرّة الأولى التي يذهب فيها إلى ذلك البيت ، وهناك نبتت زهرة صغيرة في قلبه بدأت تتفتح بهدوء وخجل ، زهرة صغيرة فاح شذاها حتى خرج في أحلامه ، ومن عينيه أخرجت جمالها وهو يسرح في تذكاراته وأشيائه الصغيرة كلما ذهب إلى بيت التاجر الهنديّ وكلما صادف راما الجميلة ، كلما تحدث معها وسمع نبرة صوتها التي تتغلغل عميقا في رأسه ، تلك النبرة التي كانت تصاحبها بعض الخنّة الجميلة ، كان يطرب لسماع صوتها ويتمنى أن لا تتوقف ، وكان يتمنى أن تقف أمامه وينظر إلى عينيها دون أن يتعب أو يشبع من ذلك .

سأله ابن البدوية عن حاله، وهو يدرك أن صديقه قد وقع في شراك الحب . ابن البدوية اللعين هذا، يقول حميد في سره، كيف عرف ذلك، هل سأخبره ؟ هل سيسخر مني ؟ سأكون عرضة لتعليقاته وسخفه، لا لن أخبره .

نكس رأسه وبدا وكأنه على وشك البكاء، وضع يديه على رأسه، وتنهد بقوة، مما جعل ابن البدوية يقوم من مكانه مذهولا وخائفا ويجلس بجانبه .

ـ باغي اتزوج .

ـ من هي ؟

ـ راما بنت التاجر الهندي .

ـ هندوسية، كيف تتزوج من هندوسية ؟

ـ الحرمة على دين زوجها .

ـ بيرضى الهندي يزوجك عليها ؟

ـ ليش تغلق في وجهي الأبواب .

ـ ما غلقتها، بفاتحه بالموضوع، واللي في القدر يطلعه الملاس.

خرج عامر من البيت حاملا البندقية ومتجها صوب الجبال، في بعض الأوقات يحب أن يذهب إلى خلوته هناك، يمشي في

وادي خلفان ويتعمق بعيدا ، يشعر بالسكينة في ذلك الحضور البهيّ للصمت، ويترصد القطا بالقرب من الماء، يصطاد بعضها ويشعل له نارا صغيرة من حطب الأغصان اليابسة، ثم يشوي قنيصته على الجمر ويتلذذ بأكلها وحيدا . في بعض الأحيان يصادف وعلا نزل من القمة ليشرب من مياه الوادي، فيترصده ويطلق عليه النار، يقتنصه ويجلس في خلوته لأيام، يأكل من لحمه الطازج ويشرب من تلك المياه العذبة، في حين يبقى ابن الصابر في السوق، يتابع أمور التجارة، ويعيد الحسابات، ويستقبل البضائع القادمة أو يستقبل التجار القادمين من الداخل ليبيعهم ما لديه بالجملة .

خرج عامر واتجه صوب منعزله الصخريّ، إن بيئة مطرح في الحقيقة شبيهة جدا ببيئة قريته، هناك الجبال والوديان وهنا أيضا خلف هذه المدينة سلسلة من الجبال التي يصادف فيها بعض النساء وهنّ يجمعن الحشائش أو بعض الرجال الذين يهوون القنص ومطاردة الوعول .

من أين جاءت له هذه البلوى ؟ لم يحسب حسابا لمثل هذا الأمر، كيف وقع هذا المسكين في عشق فتاة هندية ؟ إن الزواج من بعض الأسر العمانية أحيانا يخلق بعض التعقيدات والعقبات لكيلا تتم الزيجة، فما باله وهذه الأجنبية، ليست

من لحمه ودمه ولا من دينه، فلا دينه يوافق ولا دينها أيضا، ثم أنه كيف سيفاتح التاجر بما في داخله ؟ وكيف يعلم ماذا سيكون من أمره ؟

جلس عند النبع، افترش الرملة الناعمة وجلس القرفصاء متأهبا لأي طائر يقوده قدره نحوه، حملق في المكان، ذلك اليوم من الأيام الرائعة، لا أحد قد طرق المكان، الهدوء يعم الأرجاء، وهو ينتظر القنيصة أن تحط قريبا من النبع لتشرب، كل الأمور مواتية إلا عقله الذي يلفّ ويدور وقلبه الثائر على قصة الحب التي اخترعها له ابن الصابر .

سمع رفرفة بالقرب، نظر إلى أعلى فرأى سرب قطا يحلق ويحوم حول المكان، أمسك بندقيته في حالة التأهب، حط السرب على القمة أعلى النبع مباشرة، تكوّم عامر على نفسه مموها ذاته مع الأرض، صدح طائر القطا من القمّة، اجابه طائر آخر يقف على قمّة بعيدة، تردد الصوت في سفوح الجبال، كتم ابن البدوية أنفاسه، أصاخ السمع، وفتح عينيه أكثر، ضوء الشمس الذهبي ينعكس على قمم الجبال البعيدة وعلى السفوح، هبط طائر، رفرف بالقرب من النبع، حام مرتين ثم عاد إلى القمة، صدح مرة أخرى بصوته، جاء طائر من قمة أخرى بعيدة وهبط مباشرة وحط عند النبع، كان يقف مباشرة

أمام مرمى البندقية، دقّ قلب ابن البدوية، تنفس بعمق وكتم نفسه، صوب البندقية ناحية الطائر، ثم ضغط بإصبعه على الزناد وانطلقت الرصاصة، دوت الطلقة في الأرجاء، تردد الصدى من سفح إلى آخر للحظات، استقرت الرصاصة بين الحصى وانطلق غبار صغير من الأرض بفعل الرصاصة، كان الطائر يحلق جافلاً ومفزوعاً وهو يغادر المكان، متحصنا بإحدى القمم البعيدة، طار سرب القطا من القمة هربا من صوت الرصاص، أخطأ عامر الهدف وعزا ذلك كله إلى قصة ابن الصابر وقضية عشقه العجيبة .

أخرج بقايا الرصاصة القديمة من بطن البندقة وألقمها رصاصة جديدة وجلس القرفصاء متأهبا وقد عاد إلى سكينته وصمته، سيأتي سرب قطا جديد، الآن هي ساعة الشرب لدى طيور القطا لذلك فهي تتقاذف من كل الأمكنة لتأتي إلى هذا النبع، بدأت الشمس بالغروب خلف القمم، بقيت أشعتها أعلى الجبال، انتظر عامر حتى أظلم المكان، سمع رفرفة بالقرب منه، هبطت الطيور من كل حدب وصوب، هوت على الماء تشرب منه، اختار طائرا قريبا منه وصوب ناحيته، أطلق رصاصته واستقرت هذه المرة في جسد الطائر الذي انتفش ريشه من أثر الطلقة وسقط هامدا في مكانه، بينما رفرف باقي السرب وغادر المكان سريعا .

قام من مكانه وأخذ الطائر، يحدث أن تصطاد طائرا واحدا، طائر واحد يكفي لكي تتلذذ به على الجمر، غربت الشمس، أوقد ناره وتوضأ ليصلي المغرب .

(12)

رست السفينة في حضرموت، نزل المسافرون جميعا واتجهوا صوب فندق الراحة، كان فندقا مبنيا على الطراز العمراني اليمني القديم، عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق يحيط به جدار صغير، تصطفّ الغرف في داخله في خطين متوازيين بينهما ممر، وكان هنالك درج خارجيّ للطوابق العلوية، بينما يسكن صاحب الفندق في الخارج في غرفة صغيرة، يمكنك أن تنادي عليه من الخارج أو تتجه صوبه

مباشرة ليفتح لك . كان رجلا في الأربعينات من العمر، نحيفاً ذا سمرةٍ برونزيّة ولحية صغيرة مدببة. كان وجهه مثلثا، وصوته أجشّ تسمعه حتى وأنت في داخل الغرف . كان يستقبل النازلين إلى الفندق ويضيّفهم مستقبلا إياهم بدلّة القهوة، مالئاً لهم فناجين تفوح منها نكهة القهوة اليمينة الخالصة، مازجا القهوة ببعض التوابل وماء الورد، مما يحدو بالمسافرين أن يطلبوا أكثر من فنجان إذ تدوخ رؤوسهم من طعم قهوته الرائعة .

نزل مذخور وزوجته في غرفة بالطابق الثالث، كانت الغرفة تطلّ على البحر حيث يلتقي الشاطئ الرمليّ بآخر صخري، وكانت الأمواج تضرب الشاطئ فتتطاير قطرات الماء على شكل نوافير صغيرة من خلال الصخور، بينما ترى الأطفال يركضون على الساحل بحثا عن سرطانات البحر أو بعض المحار التي جلبتها الأمواج لتستقر على الرمل .

الأيام التي قضوها في حضرموت قرّبت كلاهما من الآخر أكثر وأكثر، كانا ينامان معا كل ليلة، ويتمشيان على ساحل البحر أو في الأسواق، ويشتريان الأقمشة والهدايا التذكارية، وبعض العطور، التي كانت نساء في حضرموت يعرضنها في السوق .

التجـار الحـضارمة لهـم جـذورهم العتيقـة في التجـارة في حضرموت أو في الجزيرة العربية، ولهم طرقهم في اقناع المشترين بجودة ما يقدمونه، لذلك ابتاع المسافرون الكثير من الأشياء اللازمة وغير اللازمة ووقعوا في شرك حنكة التجار وإغوائهم للشراء.

وصل الخبر إلى الوالي، وكانت كل أخبار المنطقة تصل إليه أولا بأول، وصله الخبر فلم يستطع أن ينام ليلته ولا لياليه التالية، هل سيتصرف كما لو كانا من سكان المنطقة، هل له سلطة عليهما، وكيف سيواجه النوخذة الذي ربما أوصل الخبر إلى السلطة في عمان أو في زنجبار وبالتالي ربما سيبحثون عنه لو أرادوا ذلك، لكن غيرته القبلية غلبت عليه، وفي اليوم الرابع من الأسبوع الثاني أمر العسكر بمباغتة رقيّة وهي تمشي في السوق، إذ دخلت إلى سكة ضيقة مفترقة عن مذخو، بينما كان هو يفاصل بائع الخناجر الفضيّة على أحدها، لم يدرِ من أمر الوالي شيئا، ولم تخبره رقيّة بما جرى من حديث بينها وبين البائعة الحضرمية، لذلك عندما قام من مكانه، التفت يمينا ويسارا فلم ير زوجته، دخل السكك والأزقة على جانب السوق فلم يجدها، بحث عنها في الجوار وسأل البائعات عنها ووصفها لهن لكنهن أنكرن رؤيتها، شعر بأن شيئا غريبا يحدث،

لكنه اتجه رأسا إلى الفندق وذهب إلى غرفة النوخذة، طرق عليه الباب فأذن له، أخبره بما حدث معه من غياب زوجته في السوق، وبأنه يشعر أنّ شيئا مريبا يحدث في ذلك المكان .

عندما وقفت رقيّة أمام دكان الأقمشة، شعرت بصدمة قوية على رأسها، ضربها العسكريّ المتنكر في ثياب المدنيين بهراوة على مؤخرة رأسها مما افقدها وعيها، كادت أن تقع على الأرض لولا أن التقفها العسكري وعسكري آخر كانا يمشيان خلفها ويراقبانها، أدخلاها دكان الأقمشة وهمسا للبائعة أنهما من عسكر الوالي وعليها أن تساعدهما، لأن الوالي أمر بالقبض على هذه المرأة، أخرج العسكريّ من ثيابه شوالا وفتحه، أدخلا رقيّة في داخله واحكما غلق فتحته، ثم رفعاها فوق كتفيهما وخرجا يمشيان بتثاقل بين ممرات السوق حتى خرجا منه .

بعد أن فتحت رقيّة عينها واستفاقت من إغماءتها، كانت تشعر بصداع قويّ في رأسها من أثر الصدمة، وكانت الرؤية غير واضحة من حولها، نادت على مذخور فلم تجد جوابا، فتحت عينيها أكثر وركزت حولها، كانت الغرفة ضيقة جدا بلا أثاث، ما خلا تلك الجدران الملساء وذلك السرير الخشبيّ الذي كانت ترقد عليه.لم تدرك ما حدث لها في السوق ولم

تتوقع أن تكون هذه هي الطريقة التي سيختطفها بها رجال الوالي، وبعد لحظات دخلت امرأة وأغلقت الباب من خلفها، وقفت قريبا من رقيّة وهي تنظر إليها صامتة، نظرت رقيّة إليها متعجبة مما يحدث، سألتها :

ـ وين أنا ؟

ـ فسجن الوالي .

فهمت رقيّة الدرس جيدا، لقد اختطفها الوالي من السوق وكأنه ليس له يد في اختفائها، هكذا إذن تبدو حقارته وطرقه الملتوية في معالجة الأمور .

سكبت المرأة ماء في كوب كانت تحمله واعطته لرقية، شربت رقية الماء دفعة واحدة، ثم قالت للخادمة :

ـ باغية اكلم الوالي.

خرج مذخور ومعه النوخذة وبعض المسافرين للبحث عن رقيّة في كل مكان من حضرموت، سألوا عنها كل من شاهدوه في السوق، ودخلوا السكّة التي كانت قد توجهت إليها رقية في آخر مرة، ولكن بلا فائدة، لقد أنكر الجميع رؤيتهم لها، لذلك قرر النوخذة أن يمضي مباشرة إلى الوالي ويتحدث معه في موضوع إختفاء إحدى المسافرات على سفينته .

دخل النوخذة ومذخور بوابة القصر، وهناك جلس مذخور في الخارج حيث منعه الحرس من الدخول على الوالي، بينما دخل النوخذة على الوالي، كان جالسا على سجاد أخضر وهو يمسك بدلة القهوة ويصب فنجانا تلو آخر، قام من مكانه وعانق النوخذة، وراح يحدثه وهو يضحك، قال له :

ـ الحرمة معنا لا تدوروا عليها من مكان .

عندما خرج النوخذة من قصر الوالي لم يجد مذخور في انتظاره حيثما تركه عند الحارس، كان قد غادر المكان، سأل عنه الحارس فأخبره بأنه غادر منذ دخوله مباشرة، ذهب النوخذة إلى الفندق وهناك وجد مذخور جالسا في زاوية من الحوش يترقبه، وعندما رآه داخلا ركض ناحيته، قال له النوخذه :

ـ روح جيب حرمتك .

(13)

جميـل الحـرش، سـلطان عبـود، مـسعود حـسن، ناصر حمدان، وغيرهـم من الرفاق، هـا هـم بملابسهم الزاهية يتأهبون للحظة تخرجهم .

لقد مرت فترة التدريب سريعا، وقف سعيد خلوف أمـام بـاب الثكنـة مـن الـداخل، قـال بأنـه يـود أن يلقـي كلمة أخيرة للجميع، الرفاق منشغلون مع أنفسهم ومع الآخرين، طـارق ينظف حذائـه، الصربـوخ متمدد على

السرير متكئا على ذراعه، يتحدث مع طارق، سلطان ومسعود ينظفان أرضية الثكنة، سكت الجميع، التفتوا ناحية سعيد، الذي استعاذ من الشيطان وبسمل قبل أن يبدأ حديثه وكأنه سوف يلقي خطبة جماعية :

ـ نبغى نشتري هدية حلوة للرقيب خمّاس .

هز الحاضرون رؤوسهم، الجميع أبدا استعداده لشراء الهدية، حدث النقاش على نوع الهدية، اتفق الجميع أخيرا على اقتراح الصربوخ :

ـ نشتريله طقم أكواب زجاج .

لماذا طقم أكواب الزجاج ؟ الكل فهم الفكرة، فلن يتذكرهم المشتطّ أبدا إلا عندما سيجلس في لحظات صفائه ليشرب الويسكي في أحد الكؤوس الزجاجية، كانت لحظة تجلٍ من الصربوخ، بعد أن اقترح بعضهم شراء خنجر، والبعض لوحة فنية وعلاقة مفاتيح وغيرها من المقترحات، اتفقوا أن يكون الطقم من النوعية الممتازة والغالية، وإن يذهب إثنان من الفرقة ليتكفلوا بشراء الهدية .

في ذلك اليوم أيضا تصالح كل من إسماعيل عمير، وداود خربوش، بعد أن اجتمع فيهما ناصر حمدان لحادثة قديمة منذ بداية التدريب جعلت من الإثنين خصماء، وذلك لأن الملازم

المسؤول عن الفرقة جاء فجأة إلى الثكنة فلم يجدها نظيفة، كانت النوبة في التنظيف على اسماعيل ولكن اتفق مع داود بالتنظيف عنه ذلك اليوم وتبادلا الأيام .

ظلت الثكنة دون أن ينظفها أحد ذلك اليوم، وكان من سوء الحظ أيضا أن يأتي دور التفتيش الفجائي عليها من قبل الضابط، الذي ذهب مباشرة ناحية الميدان وهناك سأل الفرقة عمن عليه دور النظافة فأجاب الجميع : إسماعيل .

حقق الضابط مع اسماعيل عمير، وأخبره في التحقيق بأنه بدل دوره مع زميله داود ، حينها ردّ عليه الضابط بعصبية :

ـ الرقيب عنده خبر بأنك بدلت دورك ؟

ـ لا

ـ على هالحالة ، عليك عقابين، عقاب النظافة ، وعقاب التبديل، لأنه ما ممكن تبدل دورك بدون ما تخبر الرقيب .

عوقب اسماعيل ذلك اليوم بالركض عشرة أشواط حول المعسكر، ثم أمره الضابط بأخذ نوبة الحراسة ليوم كامل على بوابة المعسكر، بعدها حدث نقاش كبير بينهما في الثكنة ، مما أدى إلى تدخل زملائهم، ومن يومها وهما لا يتحدثان مع بعضهما أبدا .

تم تخـريج الدفعـة العـسكرية بعـدما قـضت في التـدريب أكثر من عشرة شهور، كان الحفل كبيرا ومكتظا بوجوه كبار الضباط وهم يجلسون على المنصة في كراسيهم الوثيرة، جلستهم المستقيمة في الزيّ العسكريّ وهم يتابعون العرض أمامهم في الساحة أشبه بتماثيل من رخام وضعت للتو لتملأ المكان . الكل بهيئته المتزمتة ينسيك إلا أن تكون مثلهم تماما، كان الايتيكيت العسكريّ يحتّم على الإنسان اتباع النظم والأساليب في كل شيء .

كان عبدالله أحد الجنود المستجدين في ساحة التخرج، أدى دوره تماما كما دربوه هو ورفاقه ليراهم راعي الحفل مثل منظومة واحدة تتميز بالضبط والربط، وبأجسادهم الممشوقة وكأنهم جسد واحد يكرر حركاته وسكناته، بينما كانت الفرقة الموسيقية من خلفهم مباشرة تعزف المقطع تلو الآخر وهم يؤدون حركاتهم على أثرها، حتى أنك تنسجم مع جمال العرض لتجد نفسك واحدا من الذين ينساقون خلف إغواء الموسيقى والإيقاع .

إن كل خطأ ولو بسيط سوف تلاحظه في تحركات الطابور العسكري وهو يؤدي عرضه التخريجيّ الأخير. لقد تعب المدرب وهو يعيد عليهم أوامره لأكثر من ثلاثة أشهر،

فقط لكي يتأكد أن لا خلل وراء كل ذلك التعب من الإعادة صباحا ومساء، الكل يؤدي دوره بإتقان والكل قد سئم من طول انتظار لحظة الفرج التي يصبح فيها الإنسان العاديّ جنديا يشار إليه بالبنان، وعليه أن يقسم في الأخير على حماية وطنه وسلطانه .

في ذلك اليوم بالذات، كانت الكآبة على أشدها في عبدالله، لقد عاد من قريته وهو في أشد حالات الهم والكرب، حيث جلس مع أبيه، والذي أخبره برفض خاله من تزويجه لابنته، لقد تهدم الحلم الذي بناه، انهار كل شيء أمامه، مستقبله وتضحياته وحبه الذي سيستمر في داخله، يخرج بين الفينة والأخرى مثل أفعى تود أن تتنفس النسمات الباردة النقية حين تخرج رأسها من الجحر الصخري في عمق الجبل. وجد نفسه مثقلا الآن بكل تلك الأشياء التي لا لزوم لها .

عاوده الحنين إلى الدراسة وإلى المدرسة، تذكر نصح المدير وأساتذته له للعودة قبل أن يتورط تماما في الدخول في السلك العسكريّ، تذكر رسالة فصله من المدرسة بعد أن تغيب كثيرا، تذكر ذلك الوخز الذي أصابه في قلبه عندما قرأ الرسالة، بدا على وجهه الحزن، لكنه كتم مشاعره وتظاهر بعدم الاكتراث .

أن تكون وحيدا برغم الأصدقاء الذين يحيطون بك، أن تكون محبطا وحزينا وتحمل على كاهلك جبلا ثقيلا تنوء بحمله، أن تمشي وتضحك مع زملائك وأنت تشعر بأنك تتوكأ على عكاز وأنك قد بدأت تعرج في مشيتك، أن تتقوس روحك منحنية مثل عجوز هرم في حين أنت تؤدي عرضك العسكري بكل زهو الشباب، أن تبكي ناثرا دمعك في الكون على زهور بيضاء غارقة في ظلام نفسك الكئيبة وأنت في قمة فرحك وتخرجك وغبطتك، كل تلك المشاعر كانت تعصف بعبدالله وهو بين زملائه، كانت مشاعره مثل هبوب الزوابع الصغيرة التي تجيء لتغير قليلا من وجه الأرض .

وقفوا طابورا واحدا ملأ المكان، الكل راسخ في وقفته مثل جبال بلاده البعيدة بطولها الذي يجترح زرقة السماء، نزل راعي الحفل من مكانه على المنصة وتجول بين الصفوف على إيقاع الموسيقى العسكرية، قلد الأوسمة وسلم الراية ثم عاد إلى منصته، بعد ذلك أذن للطابور بالانصراف، فخرج الطابور متجها إلى خلف البنايات، هناك جلس الرفاق على الرمل مصلحين من هيئتهم، غارقين في هرجهم وسخريتهم، بينما كان عبدالله يتوسط صديقيه ويخبرهم بما حدث معه الليلة الفائتة .

أوقفهم المدرب قبل لحظات من دخولهم ميدان التخرج، كان الجميع قد انفجر ضحكا من كلام سلطان عبّود وهو يشير إلى سالم سحلوف، الذي كان يؤدي مشيته العسكرية بإتقان :

ـ حد يقولي مو نوع هالنخلة بو قدام ؟

فهم سالم سحلوف من يعني ود عبّود بكلامه فرد عليه مباشرة :

ـ النخلة أمك .

سرت موجة الضحك مثل هطول قطرات المطر، في البداية كان هناك بعض الضحك المكتوم، ثم سر العدوى في الصفّ كاملا، لم يستطع الطابور إكمال مسيره، اهتزّ واختلط الترتيب، تعرج السطر، توقف المدرب وهو يرقب الحالة التي وصل بها جنوده :

ـ طابوووووووور قف .

وقف الطابور وقفة واحدة، وفجأة اختفت سحابة الضحك التي كانت تحتل المكان، تلاشت من فوق الرؤوس، ليظهر وجه المدرب خمّاس المشتطّ، عيناه حمراوتان، ظهرت فيهما علامات الغيظ والغضب، الجميع صمت، لكن فجأة يخرج صوت صغير ومتستر من آخر الصف، صوت لم يكن مقصودا،

صوت يشبه الآهة المكتومة التي رد عليه المدرب بتهكم :

ـ مالش ؟

حينها ماج الطابور كله بالضحك، لم يستطع بعض الجنود أن يتماسك أبدا فوقع على الأرض، صرخ فيهم المدرب ولكن لم يسمعه ولم يكترث به أحد، ضحكوا حتى تعبوا، بعد ذلك وقفوا صامتين ينتظرون أوامر المدرب، الذي صرخ فيهم وهو ينظر إلى ساعته :

ـ طابووووووور، للأمام سرّ .

خرجوا كل إلى قريته، أعطت إدارة التدريب إجازة شهر كامل للجميع على أن يتم توزيعهم بعد عودتهم من الإجازة مباشرة. ذهب الجميع وقد امتلأت أرواحهم بالفرح . مروا على الأسواق يشترون الهدايا ويخططون كيف يحتفلون بهذا التخرج الذي سوف يعتبر نقطة تحول في حياتهم تماما، وخرج عبدالله إلى قريته وإلى اهله، دخل البيت محملا ببعض الحاجيات التي اشتراها، سلم على أمه وسأل عن والده، كان قد خرج ليزور أحد جيرانه، الذي عاد لتوه من مستشفى خولة معاودا بسبب مرض باطنيّ سبب له تلفا في صحته وفي جسده، فقد ظهرت الكدمات والتبقعات على جلده، يقال بأنه مصاب بالفشل الكلوي، حيث لا يوجد علاج لتلك الحالات إلا في مسقط، وعليه أن يعاود المستشفى كل فترة ليُجرى له غسيل كلوي .

شرب عبدالله فنجان قهوته من يد أمه وخرج إلى الوادي، كانت السيول قد حدثت منذ وقت قريب فامتلأ الوادي بالمياه، وهناك بالقرب من شلال صغير بين صخور الصفا المصقولة جلس متكوما على نفسه، ضمّ ركبتيه على صدره وغرق في خرير الماء وأنصت للصمت في كونه المحيط، وأنصت أكثر لقلبه وهو يسيل عذوبة مثل مياه الينبوع، فبكى مثل طفل ضائع ، بكى مدرسته وحلم أبيه وحبيبته وعذاباته في العسكرية، بكى انكسار الدرب الذي خطط له، وضع جبينه بين رجليه وبحرقة بكى كل شيء .

هدأت نفسه بعد ذلك، أنصت للينبوع وهو يتحدث للصخر بكلامه الناعم فتصور حبيبته بقربه، استرسل في خيالاته وكلمها عن أحلامه، كان ثمة جوقة تعزف من خلفه الحان الفقد والشوق .

قضى إجازته في القرية، ساعد أباه في المزرعة، وسهر مع أصدقائه بعض الوقت، لم يترك مجالا لقلبه ولا لهواجسه .

شيء ما تغير في نفسه، أصبح مثل صخرة صلدة لا تبالي ولا تكترث بما يحدث من حولها، كان يكد ويعمل في الحقل حتى الواحدة ظهرا ثم يعود إلى البيت جائعا ليتناول وجبة الغداء مع عائلته، ثم ينام بعمق حتى العصر، بعدها يذهب ليساعد والده مرة أخرى في جز البرسيم والحشائش وتقديمها للأغنام .

تم توزيع الصربوخ في معسكر السيب، استلم عمله وبدأ في ممارسة ما يأمره به مسؤوله، وكان كبقية الجنود، يظل في المعسكر حتى نهاية الاسبوع ثم يعود إلى قريته .

الأيام كفيلة بنسيان الأشياء الحميمة، الزمن قادر على طيّ صفحات كثيرة من كتاب القلب لتتفتح صفحات أخرى أكثر بياضا وأكثر قابلية للكتابة .

ذات يوم قال له والده سليمان إبن الصايغ :

ـ لاقيلك بنية .

لم يكن الصربوخ قد فكر في الزواج حتى تلك اللحظة، بعد أن رده خاله أغلق الأبواب على نفسه، لم يفكر في الموضوع مرة أخرى، وعندما فاتحه أبوه، قال له :

ـ بعدني ما مستعجل .

ـ أنا ما باغنك تقول رايك تو، شوف البنية وعلى خلاف خير.

ذهب إبن الصايغ مع ولده إلى إحدى القرى المجاورة، البيت الذي ذهبا إليه في وسط مزرعة كبيرة من أشجار الأمبا، ثم يحيط به سياج من أشجار الليمون، ثمة عريش في الوسط جلس في زاوية منه شيخ كبير، لحيته بيضاء وطويلة، وعلى جانبه تكدست الكتب بأغلفتها الفخمة .

الرجل صاحب اللحية والهيئة المحترمة، الرجل صاحب الكتب التي أخذت بعقل الصربوخ، ذلك الرجل هو الشايب حارث بن حمّاد، قال إبن الصايغ :

ـ هذا ولدي عبدالله .

ـ سمعت عنك يوم كنت صغير، قال يتحدث مع الصربوخ، كانت سالفتك على كل لسان .

يدرك الصربوخ كيف كانت حياته في المدرسة، كيف كان يغبطه الطلاب على بديهته وسرعة حفظه ومهاراته الكثيرة .

سمع صوتا أنثويا بالجوار، كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تلبس دشداشة صفراء مزركشة، لبست على شعرها لحافا خفيفا يظهر أكثر مما يخفي تقاسيم العنق والشعر .

ـ هذي بنتي سلمى، قال الشايب حارث معرفا بها، جيبي قهوة حال الضيوف .

بعد أن خرج الصايغ وابنه قاصدين قريتهما، قال لولده :

ـ هاه، مو رايك ؟

ـ فأيش باه ؟

ـ في البنت، ما شفتها ؟

نبتت الفكرة كبرعم صغير داخل عقله، ثم قامت على ساق ناعم، بعدها خرج نتوء صغير تشكل عنه زهرة صغيرة كانت على وشك التفتح .

بعد أشهر تزوج سليمان من سلمى، التي انتقلت لتسكن معه في دار أبيه ابن الصايغ في قرية العسبق .

(14)

رفض التاجر الهنديّ خطبة حميد الصابر لإبنته، ولكنه ردهم ردا طيبا . أخبر ابن البدوية صديقه بما كان من أمر الهنديّ، كان الرد قاسيا جدا عليه .

خرج حميد الصابر من البيت مكسورا، قلبه ينزف، وعيناه تضخان الدمع دون إرادته، اتجه صوب الجبال، دخل وادي خبّ السمن بعيدا عن ضجيج المدينة، مشى كثيرا في الدروب المتعرجة للجبل،

ركض وتعثر وسقط، ثم قفز في بركة ماء كبيرة ليغتسل من كل أدرانه وحزنه .

بعد أيام سافر مع قافلة متجهة صوب بلاده، حمل ما استطاع من أشياء، أخذ معه أمواله التي جمّعها من عمله في مطرح، ورحل راجعا، كانت الرحلة هذه المرة مختلفة تماما، ها هو وحيدا يعود إلى قريته، وحيدا من دون أصدقائه الذين شتّتتهم الدروب، لا يدري ما الذي حدث معهم، ها هو يشق طريقه وهو أول من يعود مبكرا إلى مسقط رأسه .

لم يكن شيء قد تغير في القرية، فهي كما هي، وكأن البارحة قد فارقها ابن الصابر وعاد إليها اليوم .

عندما وصل إلى القرية، كان قد اكترى خمسة جمال لتحمل له أشياءه، تعجب الجميع من كل هذه الحمولة التي عاد بها ابن الصابر، تجمع الكل يكتشفون الأمر، وعرض عليه بعضهم أن يشتري منه، ولكن حميد الصابر أبلغ الجميع أن يمهلوه قليلا وأن لا يستعجلوا، كان يفكر في الاستقرار في ذلك الوقت .

ذهب رأسا إلى بيت البدوية، تلك المرأة التي رفضت أن تترك القرية وتذهب لتقيم مع ابنها، كانت تصلح ما أفسدته ضربة ريح قوية للعريش ظهر اليوم الفائت، اقترب منها

وكعادته تعلق برقبتها كما كان يفعل مذ أخذته وتكفلت بتربيته، لفت يديها بصورة الواثقة حول خصره وعانقته بشوق، بكت المرأة وقد جرفتها العاطفة والشوق، سألته عن حال ولدها عامر فأخبرها بأنه بخير ويسلم عليها، سألته :

ـ ليش ما يبته معك ؟

ـ ما يستوي يترك تجارته، تعرفيه صاير مشغول .

منذ خرجت حمدة البدوية من الصحراء قاصدة القرى البعيدة، وهي تخفي حكايتها، لم تخبر أحدا بها أبدا، إلا إن الليالي التي تلت وصول حميد الصابر إلى القرية وسهرهما قريبا من بعضهما، وتداولهما الأحاديث عن الذكريات وما حدث مع الصابر وإبنها في رحلتهما، فتح كوّة في بيت الأسرار المغلقة، دخلت حزمة الضوء منكسرة لتستقرّ على وسط السرّ، على عامر، على ابنها، وكما تتراقص ذرات الغبار فرحة بالضوء الداخل إلى العتمة، تراقصة الكلمات وهي تخرج فرحة بحريتها أخيرا من قفص الصدر .

حمدة بنت الشيخ شخبوط المنجلّ، كانت في الرابعة عشرة من عمرها، عندما ذهبت كعادتها للبحث عن أعواد السمر اليابسة في المساء، لتحتطبها وتعود بحزمة تكفي لأيام، تستخدمها الأسرة في التدفئة والطبخ، في ذلك العمر، وفي أحد

الأيام، صادفت رجلا طويلا، عريض الكتفين، قد تمنطق الخنجر في وسطه، وعلق بندقيته على كتفه، يمشي متجها ناحيتها، ومنذ اللحظة الولى، دق قلبها دقات لم تعهدها، توقفت عن المشي، وهي ترقب مشيته واتجاهه نحوها، وعندما اقترب منها، تحدث إليها وسألها عن الطريق المؤدي إلى بلاد صور، لوحت بيدها مشيرة إلى إتجاه الدرب، وشرحت له كيف يمضي في الطريق الصحيح، حسب ما تعلمت ذلك من عائلتها، شكرها المسافر واعتذر لها، لكنها استوقفته، النداء الذي بداخلها طلب منها أن تستظيفه، قالت لحميد الصابر :

ـ يا وليدي ما جدرت اخليه، ساعتها أحس لساني مب حالي.

الكرم البدويّ في الصحراء، تلك العادة المتوارثة منذ القدم، والتي يضرب بها المثل ويفتخر بها بدو الصحراء، الكرم البدويّ الذي جعل حمدة بنت الشيخ شخبوط المنجلّ، تستضيف المسافر وتكرمه في بيت أبيها الغائب، لم يكن في البيت سوا أمها وأخواتها الصغار، عندما قدم المسافر وأقام لديهم ثلاثة أيام، جلس في صدر الخيمة، علق بندقيته على العمود، كانت عيناه تحملان سرّا لم تعرفه، وبارتباك ملحوظ قدمت له التمر والقهوة، ثم سكبت له الحليب ليشرب .

في الليلة الأولى راقبته نائما، قرأت ملامحه على ضوء القنديل، شعر بوجودها بالقرب منه وظلّ على حاله، قبيل الفجر، اشتد عليه البرد، استيقظ ليسحب اللحاف على جسده، فوجدها تنام بالقرب منه بدون لحاف، مدّ اللحاف عليه، ثم مدّ ذراعه وسحبها نحوه، استسلمت لدفء جسده، دخلا تحت لحاف واحد، شمها دون أن يقول لها كلمة، تحسس جسدها الطريّ، صدرها وأردافها، سحبها أكثر، التصق بها، ثم أودعها وديعته.

قامت من مكانها، ذهبت لتنام بالقرب من أمها واخواتها في الخيمة الثانية، شعرت امها بها وهي تدخل، أفسحت لها المكان لتنام بينهن، تغطت بلحاف الصوف وهي تختزن رائحة جسده، تنفسته بعمق وغرقت في نوم عميق.

في الليالي الأخرى سهرت حمدة مع المسافر الغريب، تحدثت عن المرعى والكلأ، قالت شعرا في الحب، وقال شعرا في السفر، وفي صباح اليوم الأخير استيقظت حمدة على الخواء يملأ المكان، لقد هاجر المسافر الغريب وهي نائمة، سافر عن المكان، وبقيت تحمل كنزه في أحشائها دون أن يعلم الآخرون بذلك.

- من يومها يا وليدي والمكان ضايع، والفواد مسافر وراه يدور عليه. قالت لحميد الصابر وهي تكمل الحكاية.

بعد أسابيع ظهر آيات الحمل على حمدة، وسوف يدرك أبوها ماحدث، تدرك ماذا سينتظرها حيال ذلك، فأما أن تتزوج ابن عمها، أو تسلمها امها لقابلة الصحراء لتجهض حملها، وهي لا تريد أن تتزوج بإبن عمها ولا تطيقه، وأيضا لا تريد أن تحرم نفسها من متعة تلك البذرة التي تكونت في أحشائها، وفي إحدى الليالي، سحبت نفسها من تحت الغطاء، خرجت من الخيمة واتجهت مسافرة صوب المجهول .

قطعت مسافات طويلة، تنقلت من مكان إلى آخر، طافت بالقرى وهي متنكرة، غيرت اسمها مرات عديدة، واستطاعت أن تغير من هيئتها ونبرة صوتها، كانت تظلل الدرب على من سيبحث عنها من قبل أبيها، سمت نفسها شنونة الزطية، وسعادة الشاويّة، وميمونة بنت البحّار، كانت موقنة أن هناك من سيبحث عنها .

بحث أبوها في الأماكن المجاورة، بعث أبناء عمومته خلفها، يتقصون أخبارها، لكنها استطاعت في الإختباء بعيدا عن عيونهم، رأتهم من حيث لا يدركون، سمعت كلامهم وحديثهم، وعندما ادركت بأنهم تعبوا من البحث وعادوا ذهبت في رحلتها مجتازة القرية تلو الأخرى .

بان حملها وانتفخ بطنها ، وفي ليلة كانت تنام بالقرب من تخوم قرية العسبق، جاءها المخاض، كانت وحيدة، لكن استطاعت أن تلد طفلها ، عقدت سرته، ولفته في خرقة ، توجهت إلى ماء نبع قريب، أخذت بعض الماء، سخنته قليلا ، ثم نظفت به الوليد ، وبعد ذلك الجهد الذي أصابها نامت تحت شجرة اللثل التي نبتت على ضفة الوادي وقد ألقمت ثديها الزاخر بالحليب فم طفلها الرضيع .

جاءت شريفة في صباح اليوم التالي لتسأل حميد الصابر عن أخبار ولدها سليمان الصايغ، أخبرها بقصة قراره للسفر إلى البحرين، ومنذ أن ودّعه على الميناء لم يعرف ولم يسمع عنه أية خبر، كانت شريفة تقف أمام الدار لابسة لحافا أسود منخول، وكانت تتحدث مع حميد الصابر وهي تلفّ طرف اللحاف حول إصبعها ، كان الشوق يأكلها والقلق يتجمع في طرف اللحاف الذي كاد أن يتمزق من اضطراب أصابعها .

عادت شريفة بقلب مكسور، عادت تمشي ونظرها إلى الأرض، تلك الأرض التي حملت الحلم والوجع والمعاناة، التي تعرف ما يجهله إنسان هذه القرية الغارق بكليته في خصوماته، وشريفة وحيدة لا تدري ماذا تفعل في هذه الدنيا ، فلا العمر يمتد لها لتنتظر أكثر ولا المسافر عاد .

أيضا هنالك من اهالي القرية من حضر لسؤال ابن الصابر عن بعض من سافروا قبله أو بعده بقليل، كان يجيب بأسئلة مختصرة، والأغلب كان يجيب أن لا يعرف .

بنى حميد الصابر بيتا جديدا في إحدى ضواحي القرية، وبنى بجواره دكانا ومستودعا، لقد فكر منذ وصوله إلى القرية أن يمتهن التجارة، وسوف يستفيد من احتياجات الناس للمواد في القرية والقرى المجاورة، حيث لا يوجد بالقرب منهم سوق تتوفر فيه جميع البضائع خصوصا المواد الغذائية، ولأن صديقه في مطرح التي تعتبر الممول الأول والرافد الأساسي للداخل هو أحد التجار المعروفين للمواد التموينية، فلقد قرر الاستفادة من تلك الحال . بعد أن اكتمل البنيان وانتقل ليعيش في بيته الجديد، رتب البضائع في دكانه حسب ما يراها ذات أولوية، وملأ المستودع بالأشياء الثقيلة، ثم أخبر دلّال القرية أن ينادي على الناس في كل مكان أن ابن الصابر قد فتح دكانا جديدا قرب بيته، وأنه يسعده أن تتعاملوا معه، وفي أقل من يوم كان جميع من بالقرية والقرى الأخرى لديهم الخبر عن دكان ابن الصابر .

في الحقيقة، القرويون تعودوا على حياة التقشف، لذا لا تعنيهم كثيرا وفرة المواد الغذائية في طعامهم اليوميّ ولا

تنوعها ، ولكن حميد الصابر عرف كيف يدخل إليهم من ناحية الجديد ، حياته في مطرح وقربه من التجار علّماه الكثير من أمور التجارة ، لذلك فأول ما عرض في دكانه بنادق الصيد الجديدة وأجهزة المذياع وهي تصدح بإذاعات هنا لندن والشرق الأوسط ، كان الكثير منهم يأتون إلى الدكان فقط ليستمعوا إلى أغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ، حيث جعل ابن الصابر مجلسا صغيرا أمام دكانه ملأه برملة الوادي الناعمة ثم فرش فوقها حصيرة صنعت من أعواد شجرة الرسل ، وعلق المذياع على وتد في جدار الدكان.كان يعد لهم القهوة لوحده ، ويقدمها لهم مع التمر المدلوك ، أو مع الحلوى التي أحضرها معه خصيصا من مطرح ، كانت حلوى زهران المشهورة ، قد أحضر منها خصيصا لعرضها أمام الناس وإغرائهم ، ثم ليتقبلوا وجوده بينهم كتاجر جديد .

بدأ الناس في شراء حاجياتهم من دكان حميد الصابر ، انتعشت تجارته شيئا فشيئا ، باع الأرز والطحين والحبوب الأخرى ، وباع أيضا بنادقه الجديدة التي كان الجميع متوجسين من شكلها وجودتها ، حيث أن القرويين يؤمنون بأن كل شيء قديم هو الأجود ، ولا يثقون بالأشياء الجديدة إلا بعد زمن ، بدأ الناس يجيئون إلى قرية العسبق من البعيد ليتزودوا

مما في دكان ابن الصابر، وشيئا فشيئاً صار بيت ابن الصابر سوقا كبيرا يعج بالبضائع من كل نوع، جاء بها القرويون ليبيعوا ويشتروا، أحضروا أغنامهم ومنسوجاتهم ومشغولاتهم، ثم باعوها واستبدلوها بأشياء أخرى .

في الشهور التي تلت استقرار حميد الصابر في قرية العسبق، تواصل مع صديقه ابن البدوية في مطرح ليبعث له بالبضائع التي يريدها مع القوافل القادمة، وبعد فترة سافر شخصيا إلى مطرح بعد أن ترك دكانه في أمانة أحد القرويين الذي عمل معه، وما هي إلا أيام حتى أحضر شاحنة كبيرة، كانت لأول مرة تدخل القرية .

سمع الناس هدير محركات الشاحنة وهي قادمة من البعيد، كان معظمهم لم يروا ولم يسمعوا بالسيارات، دخل الرعب قلوب كثير من الناس خصوصا النساء والأطفال، وعندما اقتربت الشاحنة من القرية رأوا ذيل الغبار وهو يتصاعد من خلفها، فولولت بعض النساء، وتلبّس الجن بعضهن خصوصا من ابتلت بالزار، سقطت احداهن أمام الجميع وهي بحالة هستيريا ،ولم تهدأ إلا عندما أحضروا لها بصلا قويا وعصروه مع دهن العود ثم دهنوا به فتحتيّ أنفها، هدأ صراخها وسقطت في إغماءة صغيرة .

تجمع الناس حول السيارة الكبيرة، لمسوا هيكلها الحديدي العظيم، وتسلق بعضهم أعلاها، لكن حميد الصابر الخائف والمتوجس على بضاعته نهرهم فنزلوا، طلب منهم أن يبقوا بعيدا عن سيارته، وعلى بعد أمتار جلس الجميع يرقب السيارة، كان بعضهم يهز رأسه ويتمتم بآيات وأدعية، وهو يقول هذه نهاية الدنيا .

جاء ابن البدوية إلى القرية مرة واحدة فقط، جاء ليأخذ أمه معه إلى مطرح، لكنها رفضت، قالت له :

ـ لقيت روحي هنيه، خلك انته فتجارتك يا وليدي .

حاول عامر مع أمه أن تذهب معه، أخبرها عن مطرح وعن البحر، وعن المستشفى الذي ستتعالج فيه إذا مرضت، رفضت حمدة الذهاب إلى مطرح، رفضت كل إغراءات ولدها، أعطاها نقودا وملابس جديدة، وكفّل بها ابن الصابر ورحل بعد أيام إلى غير رجعة .

(15)

عندما رست السفينة على شاطئ جزيرة زنجبار، أعلن النوخذة للجميع بما فيهم طاقم السفينة أن الرحلة قد انتهت وأنهم سوف يبحرون بعد شهرين عائدين إلى عمان . عندها حمل الجميع أمتعتهم وهبطوا إلى المدينة مختلطين بالناس، كانوا يبحثون عن مساكن يستأجرونها لتلك الفترة، وكان البعض منهم قد جاء باحثا عن عمل أو قريب له، أو ربما جاء ليستكشف المكان الأسطوريّ الذي يتحدث عنه الجميع في عمان .

جزيرة زنجبار الأفريقية والتي يقطنها العمانيون منذ خمسة قرون، جاؤوها محملين بعاداتهم وتقاليدهم ليسكنوا مختلطين مع الأفارقة، مندمجين معهم ومتزاوجين منهم، سكنوا الجزيرة وشيدوا مساكنهم وفتحوا مدارس التعليم، نشروا لغتهم ودينهم، جعلوا منها قطعة أخرى من عمان، لتكون زنجبار اسما يطلق دائما ملتصقا بعمان والعمانيين .

لا يعرف سليمان مكان صديقه القديم مذخور، لكنه أخبره أن يسأل عن بلدته في الداخل بعيدا عن الجزيرة. كانت قريته تقع على أطراف الغابة، قرية صغيرة ولكنها مشهورة بحكم مكانها الاستراتيجيّ الذي تمر منه الطريق إلى وسط أفريقيا، تلك القرية الصغيرة التي نسيها التاريخ ولم يذكرها أبدا، نسيها الرحالة والمستكشفون رغم وجودها في سيرهم وكتبهم .

إنها قرية سيليا التي تقع على تلة خضراء صغيرة تكشف المكان، فمن جهة الشرق يبدو السهل منبسطا أخضر ممتلئاً بالحشائش الصغيرة، بينما الجهة الغربية عالم من غموض وأشجار وجبال شاهقة وسحر وقبائل أفريقية تتغلغل في المكان وتقطنه منذ ملايين السنين .

دخل دكانا لبيع الأقمشة، سأل البائع عن القرية إن كان يعرف مكانها أو يعرف أحدا يدله عليها لكن البائع هزّ رأسه وانكر الاسم، أخبره بأن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها عن سيليا ، ولكنه دله على شخص مهتم بتوصيل الرحالة إلى أعماق أفريقيا كان يسكن في أقصى الجزيرة، أعطاه اسمه ومكانه، فخرج سليمان باحثا عن الرجل، دله من سأله عنه حتى وصل أخيرا إليه . كان رجلا في الخمسين من عمره، يتحدث اللغة السواحلية ويتقنها أكثر من العربية، تحدث معه ودفع له مقدما كل المبلغ كما اشترط عليه، أخذه في قارب حتى البرّ الآخر ومن هناك استأجرا سيارة الجيب لاندروفر وتوجه بهم السائق حتى خرجا إلى برّ فسيح، قطعوا مسافة طويلة ودخلوا في أدغال كثيفة وعبروا وديانا وحقولاً مزروعة، مرّوا على قرى متفرقة هنا وهناك، كان سليمان صامتا طوال الفترة بينما الدليل يحدثه عن كل مكان يمرون فيه، كان يدخله في حكايات كثيرة، عن القبائل والحروب، وعن البطولات والسحر .

وصلت السيارة قبيل الغروب، صعدت التلة ووقفت بالقرب من التجمعات السكنية، خرج الأطفال والنساء من البيوت السعفية ينظرون إليها بحذر وتوجس، نزل الرجل من السيارة

واتجه صوب أقرب رجل يراه ليسأله عن اومبابا ، فهزّ الرجل رأسه بالنفيّ، فهم سليمان بفطنته ما الذي دار من حديث بين الرجلين أو خمن ذلك، قال في نفسه،ترى هل ما زلت في عمان يا مذخور، أم هل ساقتك أقدارك إلى عالم مختلف ؟ .

عاد الدليل إلى حيث تقف السيارة،نزل سليمان وسأل الرجل، لكنه أبدى أسفه بأنه لم يجد أحدا بذلك الاسم .

تحدث الدليل إلى شخص آخر وطلب منه أن يدله على مكان الشيخ، فطلب منهم أن يتبعوه، مشى أمامهم حتى دخل على رجل عجوز عار إلا من قطعة قماش تغطي وسطه، سلم عليه الدليل بالعربية فرد عليه السلام، عرف بنفسه وبسليمان، ففسح لهم الشيخ مكاناً للجلوس، فجلسا ، تحدث الدليل إلى الشيخ بلغته كثيرا ولكن سليمان لم يفهم شيئا من ذلك الحديث، إلا عندما انتقل الحوار عنه، وعندما أشار الدليل بيده ناحيته، وأخبر الشيخ بقصته، ابتسم العجوز وأخبره أن ولده منذ جاء وهو يتحدث عنه .

فرح سليمان كثيرا عندما ايقن أن مذخور قد وصل أخيرا إلى موطنه، واندهش كثيرا عندما عرف بأن صديقه قد تزوج من امرأة عمانية، والحقيقة أن الاتفاق الذي سرى بين الزوجين أثناء عقدهما أن يفترقا ساعة وصولهما إلى زنجبار أو أن يحددا

مصيرهما كيفما اتفقا بعد ذلك، جعل كل منهما يقف وجها لوجه أمام الآخر وهما في مرسى السفن، بعد أن هبطا على الساحل الأفريقيّ، كان قلب مذخور يحدثه أن يناشدها بالبقاء معه، لكن شرطها الرئيسي يمنعه من ذلك، قالت له وهي تبتسم وتنظر إلى عينيه بفرح :

ـ كيف تو ؟

ـ ما اعرف .

قالها وأشاح بوجهه، كان خائفا في قرارة نفسه أن تقرأ ما يدور في خلده .

ـ نتفارق ؟

قالتها وابتسامتها تملأ وجهها .

ـ إذا باغية تروحي معي الغابة خلا .

ـ تبغاني أكون معك ؟

ـ أبغى

ـ متأكد ؟

ـ أيوا

ـ قولها مرة ثانية .

ـ أبغاش تكوني معي

ـ قولها مرة .

كانا يمشيان باتجاه المدينة وهي تسأله أن يعيد ويكرر الجملة مرة تلو الأخرى وهي تضحك، أمسكت بيده وحمل عنها أمتعتها، اتجها باحثين عن سكن يريحهما من عناء الرحلة.

طيلة شهرين وهما يبحثان عن أخوتها في المكان، أخبرهما من يعرف أخوتها بأن أحدهم سافر إلى عمق أفريقيا ولم يعد، والأخر ركب باخرة متجهة إلى أمريكا وانقطعت أخباره أيضا، أما الثالث فقد توفي إثر إصابته بالملاريا، حزنت رقيّة كثيرا على أخوتها وعلى أموال أبيها المهدورة في القرية، بكت على أخيها الميّت وطلبت من الذي يعرفه أن يدلها على قبره، وهناك وقفت تبكي بحرقة شديدة وهي تخبىء وجهها في لحاف شعرها، بكت حياتها القديمة كلها، جاء مذخور واحتضنها من الخلف، ثم أحال وجهها ناحيته، رفع اللحاف عن وجهها ومسده بيده، مسح الدمع المنحدر على خديها، عزّاها في أخيها وفي والدها .

أجهشت بالبكاء واحتضنته، ألقت برأسها على كتفه واستسلمت لدفئه ورائحته الرجولية الطافحة .

منذ ذلك الحين، قررا السفر إلى قريته، استأجرا سيارة وحملا أمتعتهما ثم رحلا إلى القرية الصغيرة، وعندما وجد

والده أمام البيت، قد فرش حصيرا مصنوعا من القصب يجلس فوقه متكئاً على الحائط، كان وحيدا، وقف أمامه وحثه بلغته :

ـ هل تعرف أين اجد اومبابا يا سيدي ؟

ـ أومبابا ؟

وكأن ناراً لسعته في أنحاء جسده، انتفض الشيخ من هدوئه، قام فحدق في الرجل الواقف أمامه، الرجل الأسود مفتول العضلات، يحمل ملامح ولده العزيز الذي غاب منذ زمن.

بكى الشيخ وهو يحتضن ولده، بكى أومبابا لبكاء أبيه، كانت رقية خلفهما تبكي أيضاً، الموقف أثر فيها كثيرا، أسرع العجوز ودخل البيت، منادياً على زوجته :

كانت المرأة العجوز في ركن ترتب بعض الأقمشة وتتمتم ببعض الأدعية التي تعتقد أنها تطرد الشياطين من المكان، تدعو مثل كل مرة أن يعود إليها ولدها، كانت هادئة ومنكسة رأسها على قطع الأقمشة، عندما دخل عليها الرجل العجوز وهو ينادي بصوت مرتفع :

ـ أومبابا، أومبابا .

لم يستطع أومبابا الإنتظار حتى تخرج أمه، دخل عليهما وهما يتحدثان بصوت عال، والده يحاول أن يقنعها بأن ولدها

قد عاد وهي تقول له أنها تعرف ذلك، وعندما دخل عليهما توقفا عن الصراخ، اقتربت العجوز منه ونظرت إلى وجهه، نظرت إلى عينيه، حملقت في مظهره، قالت له :

ـ لقد حلمتك البارحة، كنت تمد يدك إليّ وقد ضممت أصابعك، تقول لي يا أمي افتحي كفّي، لقد جئتك بهدية.

احتضنها أومبابا وهو يبكي، كانت العجوز تبكي صامتة، وتقطع بكاءها وتكمل حديثها :

ـ كل ليلة أراك قادما من البعيد، أجلس قرب التل أرقبك وانتظرك في حلمي وأرى شخصك متجها نحوي، لكنك تختفي وينتهي الحلم، إلا ليلة البارحة، كنت قريبا جدا .

دخلت رقيّة على الجميع وهي تبكي، كان وجهها يضيء جمالا وعذوبة .

ـ لقد عدت لك بهذه الهدية الرائعة من البلاد البعيدة التي سافرت إليها، هذه زوجتي رقيّة .

احتضنت الأم زوجة الإبن ورحبت بها، احتضن الجميع بعضهم البعض، اختلطت دموع الفرح بالحزن، وكانت ليلة عجيبة خرجت الدهشة فيها من عيون رقيّة وهي ترى احتفال هؤلاء الأفارقة بطريقتهم العجيبة، ورقصهم الجميل، وطبولهم التي كانت تدق طوال الليل، في تلك الليلة لم تنم حتى

الصباح، كانت تنسلخ من ذاكرتها الأولى وحياتها القديمة كشرنقة تتفتح إلى فراشة لتسافر بين الأدغال بحثا عن حياة اخرى .

على طول تلك الفترة التي استقر فيها أومبابا في قريته لم يخرج من القرية بضعة أمتار، يخرج كل صباح إلى الغابات مصطحبا كلاب الصيد وبعض حرسه الخاصين جدا، والذين تم تدريبهم منذ نعومة أظافرهم ليقوموا بخدمته .

هناك في تلك الغابات الكثيفة، أراد أومبابا أن يغسل روحه من أدرانها التي لصقت بها من جراء السنين الماضية، وكان يعجبه أحيانا أن تشاركه زوجته هواياته الدخول في غياهب الغابات واكتشاف المجهول فيأخذها معه، هناك حيث الإنسان وجها لوجه أمام الطبيعة الأم، تلك الطبيعة التي انبثق منها الإنسان الأول ونشأ وترعرع تحت نظر الوحوش والمخلوقات الأخرى، وتحت رحمة الآلهة التي أرادت له أن يكون خليفتها على هذه الأرض .

في السنين التي تلت،ولدت رقيّة أطفالها الذين أخذوا بعضا من ملامحها وسماتها وكثيرا من ملامح زوجها. كانت الأميرة المطاعة والسيدة صاحبة الرأي الأول في المكان، وكثيرا ما فكرت في ذلك القرار العجيب الذي لمع فجأة في جمجمتها

وتركها تخرج خلسة من قريتها متجهة صوب الساحل، حيث كان الغضب يقودها للانتقام من أعمامها ، كيف لتلك القوة والطاقة الروحية التي اكتسبتها فجعلتها مهابة في المكان الذي تحل فيه !

ها هي الآن، تدرك أنها كانت مسافرة لتعيش بقية حياتها هنا ، في أرض لا قريب ولا رحم يصلها ، هي الآن مثل حواء جدتها الأولى، المرأة الوحيدة في الغابة، مع زوجها الذي يملك المكان، ترى كيف سيكون شعور أولئك الرجال في السفينة حين يدركون من كان مذخور، من هو ذلك العبد الأسود الذين ينظرون إليه كقزم أو كحيوان، كيف لو جاؤوا إلى سيليا وعرفوا حقيقته، لكن ذلك لا يهم، الآن بعد أن استقر بها المقام وربطها الزمن والدم وأطفالها بالمكان، قليلا ما تحلم بوجوه معارفها وببلادها ، قليلا ما تراودها الذاكرة عن ماضيها السحيق، فهي الآن امرأة الغابات المطيرة والسحر والغموض .

هبّت نسمة خفيفة على وجهه، شعر برذاذ بارد يلامس خديه، حملق في الأرجاء، لا غيم في تلك السماء الزرقاء، تساءل من أين ذلك النثار الذي أصابه ؟ شعر بشيء ما في روحه، شيء يضغط على صدره، يحثه على عدم البقاء في ذلك

المكان، توقف عن المشي، نظر خلفه، كانت القرية تبدو مثل قلعة قديمة تقبع أعلى الرابية، وقف وأمعن النظر، ثمة سيارة خضراء تقف بمحاذاة بيت والده، مطّ شفتيه، تساءل في نفسه، ترى من يكون الزائر الغريب ؟ خبّ راجعا، أطلق لقدميه العنان، لهث وهو يصعد الرابية وعندما اقترب من السيارة رأى سائقها يجلس على الكرسيّ بانتظار من أقله إلى هنا، التفت مستكشفا المكان، لم يتحدث مع السائق، بل ذهب مباشرة باتجاه بيت أبيه، وهناك وقف خلف صديقه القديم ساكنا، يرقبه ويستكشف ملامحه ويستمع إلى صوته وهو يتحدث مع الدليل ليترجم له ما يقول .

رأى كيف بدلت الأيام من ملامح صديقه، وكيف صار جسده مصقولا، وعندما هدأ الجميع لبرهة، تنحنح من خلف الجميع، وسلّم بالعربية على الحضور، كانت أذنا سليمان قد التقطتا نبرة الصوت، التفت خلفه وقلبه يدقّ بشدة من المفاجأة، رأى أومبابا يقف عند الباب، أسرع ناحيته واحتضنه، بكى اومبابا بكاء شخص لقي ولده بعد غياب طويل، قال له :

ـ شميت ريحتك وأنا في الغابة .

اختلطت مشاعرهما، عرّفه على والده، ثم أخذه إلى بيته وعرفه على زوجته رقيّة، التي حكت له ما حدث معها منذ

خروجها من بلادها حتى وصولها إلى سيليا ، وعندما حكى لهم سليمان عمّا حدث معه منذ قراره السفر شمالا ناحية البحرين، تعجبا من حكاياته ، اعتقدت رقيّة في قرارة نفسها أن صديق زوجها يبالغ في حديثه عن نفسه وعن مغامراته ، لكن أومبابا كان يصدق كل كلمة من كلام صديقه فهو يعرفه حق المعرفة .

(16)

العسبق شجرة جبلية ، عيدانها خضراء فاتحة ، تصبح هذه العيدان هشة عندما تيبس ، لذلك يستخدمها القرويون للطبخ لسهولة اشعال النار فيها ، وقرية العسبق في اوقات المحل الشديد تصبح أيضا هشيما يابسا ، تسري فيها الحرائق في الأرجاء بسبب اليباس الذي يعم المكان .

في تلك السنين المحلة لم يكن للقرى المجاورة لقرية العسبق من حلّ إلا أن تتجه للسكنى بالقرب من القرية مستفيدين من مياه غديرها الذي لا يمحل، ومن سوقها الذي أسسه ابن الصابر.

في تلك السنة أيضا ماتت شريفة زوجة محمد الصائغ، كانت مريضة، وكانت إحدى جاراتها تقوم بخدمتها، وذات مساء اشد المرض بشريفة وماتت، أوصت جارتها أن تترك أشياءها وحاجياتها بداخل البيت وأن تغلقه للأبد، أوصتها أن تحتفظ بالمفاتيح إلى أن يعود ابن الصايغ .

سارت جنازتها بسيطة، سارت ببطء تودع العالم والحياة، تودع الهواء والحركة، سارت بصمت لتغلق على العالم قصة بشر يحيون ثم يموتون بلا ضجيج وبلا أضواء، أخذها أهل الحارة ودفنوها بالمقبرة التي نبتت قريبا من ضفة أحد الوديان .

في تلك السنة أيضا جاء الجيش وخيم بالقرب من القرية، جلسوا لأيام هناك، ضاربين الصمت والسرية على مخيمهم، مما تساءل الكثيرون عن سبب وجود هؤلاء الجنود بقرية العسبق، لم يكن الجنود ليختلطوا مع الأهالي، ولم يتداخلوا معهم، كانت سياراتهم أحيانا تجيء وتقف بالقرب من دكان الصابر، يشترون ما يحتاجونه ويذهبون سريعا، دون أن يدخلوا

في نقاش مع أحد ،ذلك ما خلق التوجس والريبة في نفوس أهل القرية .

كانت قاصمة الظهر عندما اشيع خبر اعتقال الجيش لابن الصابر، عندها كثر الهرج والمرج في القرية، ابتدعت الحكايات والقصص عن سبب الاعتقال .

الحكاية تقول أن عشرة جنود جاؤوا في سيارتين، توقفوا بالقرب من دكان ابن الصابر، نزلوا وهم مدججون بالسلاح، دخلوا الدكان ثم وجهوا بنادقهم صوب ابن الصابر، الذي انتفض خوفا مما يحدث، قالوا له نفذ الأوامر ولا تتحرك، لا تسأل ولا تتكلم الآن، سلم نفسك وبعدها يحق لك ان تتكلم، ادخلوا رأسه في كيس من قماش حتى لا يراه أهل القرية، جرجروه إلى السيارة، كانت يداه مقيدتين للوراء وكانت السلاسل تلتف حول رجليه .

قيل بأن ابن الصابر قد سرق أمواله التي يتاجر بها بين أهالي القرية من مستأجره الذي اشتغل معه في مطرح، وقيل بأن ابن الصابر كان السبب في قتل الهندي وابنته التي أحبها قبل أن يستقر في القرية، قيل أشياء كثيرة، دخلت الخرافات والأساطير حتى إن بعضهم قال أن ابن الصابر هو جاسوس كبير يعمل لصالح الانجليز .

حميد الصابر تاجر قرية العسبق، حميد الذي كثر أعداؤه من حوله لأنه من أقلية يسكنون اطراف القرية، حميد الذي ظنّ بأن القلوب تتغير والأوضاع ستتحسن، وأن تجارته ستعصمه من طغيان الشبابيص، لكنهم وجدوا حادثة وجوده في مخيم الجيش فرصة كبيرة للتشفي منه، تدخلوا في الشيخ، قال بعضهم :

ـ إنت راضي نعق غوازينا كل يوم فمخبا ود الصابر ؟

بعد شهر بالتمام من غيبة ابن الصابر في مخيم الجيش، دخل جماعة من الجنود إلى بيوت القرية وبدأوا التفتيش فيها، دخلوها بيتا بيتا، فتشوا حتى الصناديق المعدنية التي في غرف النوم، وفتحت النساء صرر القماش التي يحتفظن فيها بأشيائهن الخاصة، طلب من كل بيت أن يخرج أشياءه إلى الخارج، كانوا يبحثون عن شيء لا يعرفه أحد .

طلب أفراد الجيش من الفضوليين الذين يلاحقونهم من بيت إلى بيت أن يقفوا عند حدهم وأن يلزموا بيوتهم وإلا أخذوهم معهم بالقوة ليسجنوا داخل المعسكر، كانت الشائعات قد خرجت عن أنواع التنكيل والتعذيب الذي يحصل داخل المخيم، والذي يجرب على كل من يسجن هناك، لذلك دعا كل رجل في المدينة في صلاته أن لا يبتليه الله بالدخول إلى مخيم الجيش .

بعد أيام جاء فريق آخر ووضعوا طاولة خشبية في وسط القرية تحت شجرة المانجو الكبيرة، وطلبوا من شيخ القرية أن يأتي، وهناك طلبوا منه أن يملي عليهم أسماء أصحاب البيوت في القرية، ثم راحوا ينادونهم واحدا واحدا ليكتبوا أسماء أولادهم وعائلاتهم جميعا، كانت القوائم تكتب بصبر ولم يكن الكاتب ليكتب اسما من الأسماء حتى يتأكد من نطقه بالطريقة الصحيحة، وحتى لا يتم الخلط بين العائلات، جعل لكل عائلة ملفا خاصا ووضعت فيه القوائم التي تخصها .

هناك شيء من البلبلة في القرية تشبه في توهجها حرارة الجمر القابع تحت الرماد، لقد ملّ أهالي القرية تعامل الجيش معهم بهذه الطريقة من السرية والعنجهية ، كان الشباب يخططون للهجوم على المخيم ليلا، وكان الجميع عازمين على أن تأدية أدوارهم لطرد هؤلاء الغرباء من هذه البقعة التي لم تطأها يوما أقدام الجنود، ولكن قبل البدء في الأمر بجدية، قبل اليوم الذي قرروا فيه الهجوم، كان ابن الصابر قد خرج من المعسكر .

ذهب مباشرة إلى بيته، وجلس هناك ليومين وقد أغلق الباب على نفسه، في تلك اللحظات انسحب الجيش من تخوم القرية ،وتركوا مكانهم فارغا إلا من تلك الأسئلة المفتوحة

على قمم الجبال، ما الذي يفعله الجنود هنا وماذا كانوا يريدون ولماذا انسحبوا دون أن يعلم أحد من أبناء القرية عن أهدافهم وما الذي يخططون له .

هذه الحادثة خلقت فجوة كبيرة جدا بين القرويين والتاجر حميد الصابر، جاءه الشيخ وقال له :

ـ ما نبغى مشاكل مع الحكومة، روح شوفلك مكان تتاجر فيه .

ـ بس الجيش غلطانين، يدوروا واحد وطلع سميي .

ـ وباكر بيجي الجيش مرة ثانية وبيقول شيء غير، أحسن لبلادنا كلها إنك تطفر انته وتجارتك .

ـ لكن هذي بلادي، هين بروح .

ـ كان باغي سلامتك خرج من العسبق، رجع مسكد، سير عند ربيعك ود البدوية، لا ناقصينك ولا ناقصين مشاكلك .

ـ واذا ما رحت ؟ موه بتسوي ؟

ـ ما منك انته يا ود الصابر، مني انا جاي اتكلم معك، جلس فبلادنا وبتشوف .

فكر ابن الصابر كثيرا في تهديدات الشيخ، وبعد ساعات من تلك المحادثة ذهب إلى بيت الشيخ وطلب منه أن يمهله لأيام

حتى يذهب إلى مطرح ويرتب أموره في نقل أمواله، وافق الشيخ على ذلك، وطلب منه أن لا يتأخر .

خاف ابن الصابر من تهديدات الشيخ وهو يدرك كم تعني له أن يقول الشيخ لبعضهم افعلوا كذا وكذا، لسوف يحرقونه هو وأمواله بدم بارد ثم ينسبون ذلك للأعداء، لذلك ذهب إلى مطرح والتقى بابن البدوية، أخبره بكل ما حدث، ضحك عامر بشدة، وقال له :

ـ انته ما تتوب ؟

رجع ابن الصابر بعد أيام والتقى بالشيخ ثانية، اتفق معه على بيعه كل ما يملك في القرية من أموال وتجاره، حدد الشيخ المبلغ ولم يساومه حميد الصابر كثيرا، لم يستطع إقناع حمدة البدوية في العدول عن قراراها والذهاب معه، خرج مرة أخرى من القرية، وفي هذه المرة خرج بلا عودة أبدا قاصدا مطرح ومستقرا بها إلى الأخير .

في مطرح كبرت تجارتهما مع الأيام، حتى صارا من التجار المعروفين على مستوى المكان، وبعد ذلك بدؤوا في تأسيس شركات مختلفة ومتنوعة باسميهما، واعطيا تصاريح لاستيراد البضائع وغيرها، وأحضروا عمالا من الخارج، وبذلك ترك الاثنان قريتهما ولم يزوراها أبدا .

(17)

اشـترى عبـدالله الـصربوخ مزرعـة قديمـة علـى مشارف قريته العسبق . كانت المزرعة ميتة تماما إلا من بعض النخل الذي غطى الجريد اليابس جذوعه من الأسفل وحتى القمة، ذهب إلى صاحب المزرعة وساومه في السعر، واشتراها بألف ريال، كانت قيمة الألف ريال في نظر القرويين الفقراء في تلك الأيام كبيرة جدا.

صار الصربوخ يقضي جل وقته في استصلاح الأرض، حفر البئر التي طمرتها مياه الأمطار وأعاد استصلاح السور القديم وسيج الأرض كلها، ثم جعل لها بابا كبيرا يستطيع أن يدخل منه سيارته إلى داخل المزرعة، بعد ذلك جلب لها الأتربة الصالحة للزراعة من أماكن مختلفة باستئجار العمّال الهنود الذين كانوا يملكون شاحنة صغيرة ينقلون فيها المواد، كان ينتقي أماكن التربة بنفسه، ردم مساحة كبيرة من المكان بالتربة الزراعية، وبنى الجداول التي سيملأها بالماء، ثم بنى حوضا كبيرا بالقرب من البئر، ومد الجداول اليه، وعندما اتم الأمر بدأ بزراعة المكان .

أحاط المزرعة من كل الجهات بأشجار النخيل والليمون، ثم زرع في إحدى الزوايا أربع شجرات من المانجو، ومساحة أخرى بأشجار السفرجل، أما الجانب الأكبر من المزرعة فخصصه لزراعة الخضروات الموسمية، مع ترك مساحة أخرى لزرعة البرسيم .

بعد سنة من شرائه للمزرعة وجد عرضا من أحد سكان القرية لشرائها وأعطاه خمسة آلاف ريال، لكن الصربوخ رفض العرض وقرر في تلك السنة أن لا يبيعها أبدا .

استصلح مكانا للجلوس، بنى عريشا صغيرا ووضع فيه حاجياته، كان الجميع يحبون أن يجيئوا إليه ويجلسوا معه حبا في جمال المكان وهدوئه .

بعد أن بنى الصربوخ حظيرة كبيرة للحيوانات و قسّمها إلى واحدة للأغنام و أخرى للأبقار ثم بنى بجوارها أيضا حظيرة ثالثة للطيور قسّمها أيضاً واحدة للدجاج وأخرى لطيور أخرى مثل البط والصفارد وطيور الحباري .

بعد فترة من العمل في المزرعة زار المكان وفد قادم من مكتب الوالي، اتصلوا مسبقا بالصربوخ وطلبوا منه أن يزوروا مزرعته وأن يلتقيهم هناك، دخلوا المزرعة وصوروها من كل الجهات، جلس الجميع في العريش وكان عبدالله قد أعد مفاجأة للجميع، حيث عمل وجبة غداء للوفد، ساعده في ذلك أخوانه وبعض أقاربه .

أبلغ مدير الزراعة عبدالله الصربوخ بأن مزرعته قد دخلت في مسابقة الزراعة وأنه سوف يحصل على دعم ماليّ من الوزارة لبناء بيوت محمية سوف تدفع فيها الوزارة المبلغ كاملا، وأن الإشرف سوف يكون من قبلهم حتى يستقر المشروع .

شرحوا له عن أهمية البيوت المحمية وفائدتها، فوافق الصربوخ بمقترحهم، في ذلك اليوم قطف لكل واحد من

أعضاء الوفد قفيرا كبيرا من السفرجل الذي نضج، مما جعل الجميع يشكرونه على كرمه الجزيل .

في السنة التي تليها جنى الصربوخ أطنانا من الليمون الذي أرسله للأسواق الداخلية وباعها واستفاد من قيمتها ، ثم جاء أحد الأهالي واشترى السفرجل من أشجاره بألف ريال، الذي قطفه على مراحل وأخذه إلى الأسواق .

وافقت الزراعة على منحه عاملا آسيويا ليساعده في أمور المزرعة لأن العبء صار كبيرا على الصربوخ وعلى إخوانه ، وأصبحت تتطلب جهدا مضاعفا.

عندما جاء دور عبدالله الصربوخ وحصل على السلفة السكنية بنى بيتا جميلا في المزرعة ، حينها كانت قناعة أبيه قد تغيرت، لذلك عندما اكتمل البنيان، فاتح الصربوخ أباه ثانية في الانتقال معه إلى المزرعة ، فوافق دون نقاش، مشترطاً على عبدالله وأبنائه الإبقاء على بيتهم القديم على حاله وعدم بيعه لأحد ، فوعده عبدالله بذلك إكراما للحياة التي عاشها الجميع هناك .

برغم كبر عمر سليمان إلا أنه كان يمشي إلى القرية كل يوم صباحا ويزور الناس مشرفا على نخيله ، لم يكن ليجلس في المزرعة إلا قليلا ، ولم يكن يطلب من أبنائه أن يحملوه بالسيارة إلى القرية ، بل كان يرفض ذلك بشدة عندما يعرض

عليه أحدهم ذلك، كان يحب المشي والحركة، يمشي وكأنه ما زال في قمة شبابه، بل لم يكن احد ليجاريه في المشي، لأنه تعوّد على المشي السريع، حتى عندما أصيب بعرق النساء في رجله لم يكن ليعيقه عن المشي برغم العرجة التي أصابته، حتى توصل إلى كيّ رجله في الفخذ وفي منطقة الحزام أعلى الحوض، فشفي تدريجيا من الألم وزالت عرجته وعاد إلى طبيعته تماما .

في كل يوم يذهب سليمان ود الصايغ إلى القرية لابد له من أن يمرّ على البيت القديم ويجلس فيه، كان يستمتع بالروائح المنبعثة من طين الجدران، يغرق في التذكر ويعيد سيرة حياته مقطعا مقطعا، يعيد تذكر الوجوه والأسماء التي صادفها، رحلاته وجولاته، ثم يخرج إلى نخيله، يجلس هناك لفترة ثم يعود مشيا إلى المزرعة .

في منتصف التسعينات أصاب قرية العسبق محْلٌ شديدٌ بسبب انقطاع هطول الأمطار لفترة طويلة، مما سبب جفافا كبيرا في المياه، فانقطعت الأفلاج عن الجريان وغارت المياه في الآبار، إلا بعضها التي تبقى فيها كمية ضئيلة، فأخذت أشجار القرية تموت، وصار النخيل يابساً وهامداً، يتساقط من جراء الرياح الخفيفة التي تمر بالمكان .

وهناك خارج القرية كانت وما زالت مزرعة عبدالله الصربوخ خضراء وارفة، تتمتع بوفرة الماء وكأنها في أيام الخصب الأولى، مما سبب كثيرا من المشاكل له ولعائلته .

توجه جمعٌ غفيرٌ من أهالي القرية إلى مكتب الوالي وقدموا شكواهم ضد عبدالله الصربوخ الذي في نظرهم قد حبس المياه فمنعها من الوصول إلى القرية بسبب مزرعته التي تقع في طريق المياه المتجهة إليهم، ولأن مكان المزرعة أكثر ارتفاعا فإن المياه وهي في طريقها تقف هناك وبالتالي يستنزفها عبدالله الصربوخ ثم لا تصل أو يصل منها النذر القليل إلى قرية العسبق، لذلك طالب الأهالي بتوقّف عبدالله الصربوخ عن استنزاف المياه أو أن يمد من بئره أنبوبا ليزود به فلج القرية الذي جف .

تم استدعاء عبدالله الصربوخ إلى مكتب الوالي، فذهب حسب الموعد المقرر، وهناك علم بالموضوع بكل تفاصيله . وقد حضر بعض الأهالي في ذات الموعد ليستمع الوالي إلى كلام الطرفين قبل أن يحول المسألة إلى القضاء، ولكن الصربوخ طلب من الوالي قبل تحويل القضية أن يطلع على مكان المزرعة وطلب أن تقاس المسافة بينها وبين القرية بحضور خبراء من دائرة المياه حتى يكون الجميع على بينة من أساس القضية،

فوافق الوالي على ذلك ورتب موعدا و ذهب بمعية بعض المسؤولين، فاطلعوا على المزرعة التي تقع على بعد خمسة كيلومترات خارج القرية، مما أكد خبير المياه بأنه لا ضرر من وجود البئر في هذا المكان على القرية، وبأن اتجاه المياه الجوفية في القرية مختلف تماما عن اتجاهه في مزرعة الصربوخ، مما أقنع الوالي والمسؤولين معه بذلك، وقرر عندها إغلاق القضية .

يتذكر الصربوخ كيف صار يعامله أهالي القرية وكيف قطعوا التداخل معه، وكيف بدأوا يبحثون عن المنكدات في أموال والده في القرية ويقفون ضده في أتفه الأمور، حتى صديق طفولته سلمان الذي أكمل تعليمه وصار معلّماً في مدرسة القرية، صار يتعامل معه على أنه من قبيلة أخرى .

سلمان الذي ظل في مدرسته وفي قريته بعد أن فقد أعز أصدقائه، والذي ذهب ليعمل في الجيش، لم يكن من بد إلا أن يكمل تعليمه المتعثر سنة وراء سنة، كان يقفز من فصل إلى آخر حتى أكمل الإعدادية في قريته، بعدها سافر إلى المدينة ليدرس في المدرسة الثانوية هناك، حيث دخل في علاقات أخرى ومختلفة هذه المرة مع شباب القسم الداخلي الذي وفرته لهم الوزارة ليسكنوا فيه .

شعر سلمان بالضياع في بداية الأمر، لكنه تعود على عدم وجود صديقه، فبدأ يتغير شيئا فشيئا، و بدأت تستهويه ميولات أخرى نجحت في نسيانه لعبدالله الذي بدوره أيضا غرق في تفاصيل وظيفته وتبعاتها، وهكذا انفصل الصديقان عن بعضهما، وبقيت الذاكرة تحمل تفاصيل طفولتهما دون أن يبادر أحدهما للتقرب من الآخر.

أكمل سلمان الثانوية وحصل على نسبة أهلته للدخول إلى كلية المعلمين المتوسطة، وفي الحقيقة كانت درجته على الطرف مباشرة، ولكن الحظ ساعده في الدخول، ثم بعد سنتين تخرج معلما، وتم تعيينه في ذات المدرسة التي خرج منها في قريته.

ها هو سلمان صديق الطفولة القبلي برغم أنه يعلم الأطفال في المدرسة أن لا فرق بين الانسان وأخيه الانسان، ها هو يقف وجها لوجه مع أفراد قبيلته ضد من كان صديقه في يوم ما.

يدرك الصربوخ أن القرية تتكون من مجموعة من التراكمات والمشاحنات الصغيرة القديمة والمتأزمة والتي يغذيها الأهالي أباً عن جدّ، والتي انزرعت في الأجيال ولم يستطع حتى الآن التخلص منها حتى الذين تعلموا وخرجوا من القرية، كانوا يتواصلون مع اهاليهم سائلين عن أخبار الآخرين وعن قضاياهم.

الكل في قرية العسبق يتحين الفرصة ليبث فضيحة عن بيت من البيوت أو ليخلق مشكلة كبيرة مع الآخرين حتى لو كانوا أخوته وأبناء عمومته، لذلك تختفي الأخلاق والطيبة فجأة لتحل محلها القسوة والتوحش، لدرجة التفكير في الضرب أو القتل .

كثيرا ما حدثت المناوشات التي أدت إلى العراك بسبب شيء تافه لا يسمن ولا يغني من جوع، فهناك من تعارك لمجرد مروره من مكان يخص فلاناً من الناس، تنابش الآخرون عليه وضربوه ضرباً مبرحاً ثم رموه على الطريق ليكون عبرة، مع أنه قريب لهم ونسيبهم وابن قريتهم .

العجيب في الأمر، يبدو أنّ الجميع في قرية العسبق متسامحون وهادئون إلى أبعد الحدود، لكن من يعرفهم جيدا يدرك تلك الأحقاد الجاثمة على الصدور والتي سكنت منذ مئات السنين ولم تخرج، والأعجب من ذلك أن الغريب الذي يمر بالقرية يكرم تكريماً لا يوصف، بينما القريب يحتقر ويهان .

بعد أشهر قليلة هطلت الأمطار هطولا لا مثيل له لمدة ثلاثة أيام متتالية، فاض منها الوادي وامتلأت الآبار وعادت الأفلاج للجريان مرة أخرى، فنسي الناس أو تناسوا قضيتهم مع الصربوخ، أو ربما أجلوها لِمَحْلٍ قادم .

(18)

الأيام التي قضاها سليمان بصحبة صديقه أومبابا في أدغال أفريقيا كانت مختلفة تماما عن حياته الأولى، فهناك كان وجها لوجه أمام الدهشة الأولى التي يواجهها كل لحظة، كان عليه أن يعيش مثلهم تماما، وأن يخرج مع صديقه ورفاقه إلى وسط الغابات ليطارد الوحوش وليلتقي بسكان الغابة القاطنين فوق الأشجار، كان عليه أن يفكر كثيرا في استقراره على هذه الأرض ونسيان بلده الأول الذي خرج منه ولم يعد إليه .

تزوج من فتاة سمراء، فاحتفل به أهالي قرية سيليا ورقصوا طوال الليل، منحه شيخ القبيلة كوخا جميلا بعدما أثثه بما يلزم، واستقر الحال به، ليكون ديدنه اليومي هو اتباع البرنامج الذي يعده أومبابا لرحلاتهم التي تمتد أحيانا لأيام وأحيانا لساعات قليلة .

مرّت الأيام مسرعة،ونسي سليمان موعد تحرك السفينة أو تناساها عمدا ليسافر النوخذة ورجاله بدونه فقد نادته روح المغامرة فلم يستطع إلا الانصياع لها .

يعتقد أومبابا أن روحاً من أرواح الغابة قد سكنت صديقه، خصوصا عندما قابل سليمان كبير السحرة الذي يسكن في قلب شجرة عملاقة من تلك الأشجار المعمرة، كان الساحر ينظر باستغراب على وجهه، ويتمتم ببعض الطلاسم التي لا يفقهها الآخرون، دار حوله وهو يقرأ تعويذاته، ثم أمسك جبين سليمان وأمره بالجلوس، صرخ الساحر وهو يرفع رأسه عاليا إلى السماء، طار سرب من الطيور كان قد حط على الأشجار القريبة، صرخت القرود وتقافزت من شجرة إلى أخرى، ركضت بعض الحيوانات خائفة، وسمع من البعيد زئير أحد الأسود، كان الساحر يرتجف، وكان العرق يتساقط من جسده العاري وما زال يتمتم أدعيته ويدور حول سليمان، الذي

ظلّ ثابتا في مكانه، هادئا مطمئنا، لا يعنيه ما الذي يحدث من حوله .

بعد تلك الحفلة الترحيبية من الساحر، جلس أمام سليمان ووضع كفه على جبينه، شعر سليمان بالخدر يسري في جسده، وشيئا فشيئا تمايل جسده وسقط مغشيا عليه .

بعد لحظات أفاق من إغماءته فجلس، شعر برأسه ثقيلا، أخبر الساحر أومبابا أن روحا مقدسة سكنت جسد صديقه، وأنها سوف تلازمه في حياته وسوف تعينه على قضاء حوائجه، وتقيه من الشرور التي تصادفه .

في تلك الليلة وهم نائمون في الغابة تحت حراسة رجال أومبابا، حلم سليمان بوجهها يأتيه مع ضوء القمر يخترق عتمة الغابة، رآها قادمة من البعيد لتقف بالقرب من الشجرة المعمّرة، ذات الوجه الذي أنقذه من الغرق، ذات المرأة التي نام في حجرها، أشارت إليه في الحلم أن يتبعها فتبعها، خرجت به من الغابة ليرتقيا جبلا عظيما، أدخلته احد الكهوف، والعجيب في الأمر أن الكهف كان مضيئا من الداخل، أمسكت بيده وقادته إلى داخل الكهف، مشت به طويلا وهو يسمع همسا وخرير مياه، وأحيانا يأتيه بكاء طفل من الناحية الطويلة للكهف، كانت الأصوات تختلط ببعضها، حتى وقفت به على

مطلّ هاوية سحيقة، رأى شلال ماء كبير يتساقط داخلا إلى الهاوية، كان هديره يملأ المكان، استدارات لتواجهه، نظرت في وجهه وحملقت في عينيه، كانت عيناها محيطا هائلا من العذوبة والسحر، أمسكت بيديه ثم قفزت به إلى الهاوية، رأى نفسه يسقط ويسقط، أنتظر أن يرتطم جسداهما بالأرض لكن طالت المدة وما زال يهوي، كان شلال الماء يتساقط بجانبهما من الجهة المقابلة، سمع في سقوطه همسا يأتي من كل الجهات، لم يكن يفقه شيئا من ذلك الهمس .

استيقظ والعرق يبلّل وجهه وجسده، كان الجو حارا جدا والرطوبة داخل الغابة على أشدها، ولم تكن هناك نسمة هواء أبدا، شعر بأنفاسه تخرج بشدة وكأنه كان يركض، استيقظ أومبابا على لهاثه، قام من مرقده، شرب ووقف يتأمل الغابة في الظلمة، ترى أين أنت الآن أيتها الروح التي تلاحقني حتى في منامي ؟

دخل في عتمة الغابة متأملا أشجارها وحركتها في الظلمة، منصتا إلى الأصوات القادمة من الأعماق، مشى قليلا ثم اسند ظهره على جذع شجرة كبيرة وجلس وحيدا مفكرا في حياته وذكرياته، عادت به الذكرى إلى طفولته في قرية العسبق، هناك حيث عالم من الحجر، وهنا بعيدا بعيدا عن

ذلك العالم، وبعد هذه السنوات، يشعر بحنين أقرب لدفعة صغيرة للبكاء لذلك المكان، حنين صغير جدا، قد يكبر مع الأيام فيعود طائره المهاجر إلى صدره ليذكره بالعودة مرة أخرى.

بعد أيام حيث كان الجميع جالسين أمام بيت الشيخ، هناك في قرية سيليا على مشارف الغابة، شاهد الجميع مجموعة من الناس يتجهون ناحيتهم، شاهدوا رجالا يحملون أطفالا ونساء تحاول اللحاق بهم، أمر الشيخ أحد الرجال بأن يتقصى خبرهم، ولكن أومبابا قام من مكانه واتجه إليهم، أدرك بفطنته أن هناك حدثاً غريباً، و أن هؤلاء الناس ليسوا من الأفارقة، هبط ناحيتهم، استوقفهم وسألهم إلى أين ؟ رد عليه أحد الرجال :

ـ الجنود على أثرنا، لقد ثار الأفارقة على العرب في زنجبار، هنالك أوامر بقتل كل عربي صغيرا كان أو كبيرا، ليس لنا إلا الهرب، سوف ندخل الغابة ونحتمي فيها لعل الله يمن علينا بالحياة والنجاة من هذا الموت العجيب .

صعد أومبابا راكضا، رأى الشيخ ولده قادما يركض فعلم أن في الأمر شيئاً مهماً، أخبره بما سمع، فنكس رأسه،

كان الأمر عظيما في حقه كإنسان، هو الذي قضى عمره يحث القبائل من حوله على السلام وعلى عدم الانصياع للمستعمرين ولصوص الكنوز الاوروبيين، يدرك تماما أن اللعبة لعبتهم بقدر ما يملكون من وسائل لجعل المكان يبدو غير مستقر تماما حتى يستنزفوا المكان من خيراته وموارده .

- أخبر الرجال بأن يتأهبوا للذهاب إلى كهف الجبل .

- إنه مقدس يا أبي وقد يغضب ذلك أرواح الأجداد .

- أرواحهم لا تغضب من الخير يا بنيّ، سوف ندسهم هناك، لن يستطيع كائنٌ من كان أن يصل إليهم، فهذا الكهف له امتداد داخل الأرض .

ركض أومبابا ناحية البيوت، صرخ برجاله فتجمعوا، أخبرهم بأوامر الشيخ، هبط الرجال ناحية المجموعة الهاربة، بدأ صراخ النساء خوفا من الرجال السود الراكضين ناحيتهم، خافوا وتوجسوا شرّاً منهم، لكن أومبابا كان في مقدمتهم، طمأنهم بأن الشيخ وافق على أن يخبئهم من الجند، فذهبوا معه، أخبر صديقه وزوجته رقية أيضا أن يذهبا مع الجميع، قال لهم لا تنفع الشجاعة في وجه الكارثة، سوف يقتلون كل شيء في طريقهم .

يدرك أومبابا تماما حين يفور الدم ويتذوقه القتلة، سوف لن يشبعهم القليل منه، لن يتوقفوا حتى تشرب هذه الأرض الكثير منه .

دخل الجميع إلى قلب الغابة وبقي الشيخ وبعضٌ من جماعته هادئا في القرية، وما هي سوى ساعات قليلة حتى وصل الثوار إلى المكان، أحاطوا بالقرية، وجاء رئيسهم ليسأل الرجل العجوز إن كانوا قد شاهدوا مجموعة من العرب الهاربين قد مروا بالقرية، لكن رئيس القبيلة نفى ذلك .

بدت ملامح الشيخ هادئة وصادقة للعصابة لذلك لم يستقروا كثيرا في المكان بل تجاوزوه إلى مكان آخر، أخذوا معداتهم وبنادقهم الرشاشة وغابوا داخلين إلى الغابة .

أدخل أومبابا الجميع إلى كهف الحياة، كان كهفا مظلما وغائرا في عمق الجبل، هبط الجميع عميقا، كانوا ينزلون ببطء غير معتادين على ظلمة الكهف، ولكنهم بعد ذلك استطاعوا أن يروا الصورة واضحة تماما عندما تعودوا على الضوء الضيئل الموجود، كان المكان رحبا جدا، وكان الماء يقطر من سطح الكهف ومن جوانبه، كان باردا، وكذلك الهواء القادم من الداخل كانت برودته تخفف القلق، مما جعل الأطفال يغرقون في نوم عميق وكذلك النساء، كان المكان

هادئا جدا، جلس أغلبهم صامتا يفكر في نفسه، ما الذي سيحدث بعد ذلك، ولماذا آلت الأمور إلى ما آلت إليه، بعد أن تعايش العرب مع الأفارقة مئات السنين.

خرج أومبابا ورجاله من الكهف بحذر شديد، خرجوا إلى القرية وعرف من والده العجوز عن أمر العصابة التي قدمت إلى القرية وكيف تجاوزوها باحثين في الأدغال، أبلغه كيف وصلته الأخبار عن المذابح الجماعية التي حدثت في زنجبار، وكيف أن كثيرا من العرب قد راحوا ضحية تلك الثورة، وعن الكثير ممن تشردوا في البلاد ودخلوا إلى أفريقيا، وكيف أن بعضهم هرب إلى البحر ليغرق فيه.

كانت الأخبار تأتي تباعا مع المسافرين الداخلين إلى وسط أفريقيا، وكان على الجميع في القرية أن يبدوا حذرين في التعامل مع كل زائر ولا يتطرقون من قريب أو بعيد إلى المجموعة الهاربة.

كان أومبابا ورجاله يذهبون إلى الكهف بين الفينة والأخرى بطريقة متقطعة وحذرة، متطمنين على الوضع هناك ومزودين الناس باحتياجاتهم اللازمة، كان أومبابا يهتم بهم كثيرا، اعتبرهم أهله، أكرم الجميع بلا استثناء وطمأنهم بأنهم سوف ينجون من الهلاك وأن عليهم الصبر.

بقيت زوجته معهم أيضا، قامت بدورها في تلبية احتياجاتهم، وهدأت من روعهم، وجدوا فيها ضالتهم المنشودة في تلك الغابة المليئة بالغموض وفي تلك البقعة التي عشش فيها الموت .

أما سليمان فكان رئيس الكهف وسيده، ادار الحياة فيه وكأنه لم يخلق إلا ليكون رئيسا، أطاعه الجميع دون أن يتساءل أحدهم من أين جاء هذا العمانيّ ولا من أي مكان هو .

في تلك الفترة من ستينيات القرن العشرين، قتل كما تقول الأخبار ما يقارب من خمسين ألف عربي كانوا يسكنون زنجبار، وشرد الآلاف الذي دخلوا إلى أدغال أفريقيا ووسطها، ومنهم من سافر إلى أوروبا وامريكا واستقر بها، تاركين ممتلكاتهم وإرثهم، رغبة في الحياة، ومنهم من سافر راجعا إلى عمان، بعد أن استولى الأفارقة على سيادة الجزيرة ودخلت تحت نطاق حكومتهم الجديدة التي جعلت من شهر يناير احتفالا ليوم وطنيّ، يحتفل به كل عام، تذكارا لهم بتحررهم من هيمنة العمانيين على المكان .

بعد أسابيع جاءت الأخبار بأن الهدوء قد عاد إلى الأرض وأن المذابح قد انتهت، وقد قتل من قتل، وعندما تاكد أومبابا بنفسه من ذلك، أخرج الجميع من الكهف، وهرب بهم حتى

أدخلهم إلى أرض الصومال ومن هناك سافر الجميع عبر سفينة تجارية قاصدة إلى الكويت في شمال الجزيرة العربية، والتي مرت بعمان وانزلت بعضهم هناك والبعض الآخر في موانيء أخرى بالشمال .

عاد سليمان إلى مسقط على ظهر تلك السفينة أيضا، هبط منها مع من هبطوا وتجول في السوق، سأل في بداية الأمر عن النوخذة محفوظ بن عثمان، فأخبره بعضهم أنه استقر في مدينة صور، وبعضهم قال له بأنه بين الفينة والأخرى يجيء إلى مطرح، كان في داخله خوف من أن يكون النوخذة قد استقر في زنجبار حتى وقت الثورة، وخاف أن يكون قد أصابه مكروه، وبعد أن تيقن من وجوده في عمان قرر أن يذهب إليه في صور، فانتظر أية سفينة تقله إليها، وفي تلك الأيام عمل كحمّال في الميناء بالأجرة اليومية .

قابل سليمان صديقه القديم الذي جاء معه من القرية، قابل عامر ابن البدوية قريبا من الميناء، تحدثا قليلا، بدى على ابن البدوية عدم الاكتراث بصديقه، تخابرا قليلا ثم افترقا، وذهب كل منهما إلى جهة .

في أحد الأيام، شاهد فتاة الحلم وهي تمشي على الشاطئ، راقبها من بعيد، ترك الحمولة التي كان يحملها على ظهره

وتبعها ، دخلت إلى إحدى السكك ، التفتت ناحيته وابتسمت ، أسرع في مشيته يريد اللحاق بها ، تبعها من مكان إلى آخر حتى رآها تدخل في أحد البيوت ، توقف أمام الباب ثم طرقه ، أنصت للداخل ، سمع خطوات تقترب منه ، بعد قليل ، فتح الباب ، أطلت عجوز من الداخل ، سألها عن الفتاة التي دخلت هنا قبل قليل ، طلبت منه أن يصف الفتاة ، فأخبرها ، نكست العجوز رأسها ، ثم أخبرته بأن الفتاة التي يتحدث عنها كانت أختها ، سافرت منذ عشرات السنين إلى الشمال ، وغرقت في المركب مع الآخرين ، بعد أن هجم عليهم اللصوص ، وكان معهم رجل شجاع يقودهم يسمى ذئب البحر ، أخبرته بأنها كانت في أول أيام عرسها ذاهبة مع زوجها الذي كان يعمل في البحرين .

أغلقت العجوز بابها ، ظل نظره مرتكزا على حلقة الباب المغلقة بقفلها الصدئ وكأن الباب لم يفتح منذ سنوات عديدة ، آثار الزمن التي ظهرت على الباب وتآكله ، الغبار الذي ترسب في كل مكان ، البيت المهجور ، نظر من حوله إلى الحارات وإلى الصمت ، ثم ذهب قاصدا الميناء .

عاد ابن الصايغ إلى قريته ، كان ينوي الذهاب إلى صور لكن سفينة النوخذة وصلت إلى مطرح أخيرا ، أخذ سليمان ماله من الرجل ، ثم اتجه قاصدا قريته في إحدى السيارات .

وصل القرية ليلا، عواء الذئب يأتي من قمم جبل القرن، والحجارة تتدحرج على سفوح جبل الشوع، وجد باب بيته مغلقا، لم يشأ أن يزعج جيرانه في تلك اللحظة المتأخرة، فرش لحافا حمله معه على الأرض ونام، وفي الصباح بعد أن صلى الفجر في المسجد، عرف بوفاة أمه شريفة منذ سنوات، قصد بيت جيرانه وأخذ المفتاح ولم يدخل في أحاديث كثيرة معهم.

منذ الصباح كانت الريح تلامس أشجار الشوع النابتة على سفوح الجبل فتخرج أصواتا أقرب للحكايات، ملامسة الريح تصنع الحكايات وترويها لجبل الشوع، الريح التي لا تستقر على أرض، وليس لها مكان، تلك الريح الأبدية التي طافت العالم، هاهو يسمعها تترنم بما تعرفه، تغني فيهزج الشوع وترقص النخيل في الجوار.

الوعل في آخر لحظاته قبيل الشروق يقف على القمة، تلك القمة التي لم تتغير مع الأيام، ولم يزل وعل جبل الشوع هناك، يرقب حارات العسبق وكائناتها في الأسفل، يرقب بصمت، يسمع الحكايات وسير أصحابها ويرافقهم في حياتهم، ثم يرقبهم وهم يذهبون في اللحظات الأخيرة صوب إحدى سفوح الجبل، يرقدون هناك رقدتهم الأبدية.

الوعل، وعل جبل الشوع، بقرنيه الكبيرين وقد بدأ الصبح بالمجيء، شعر سليمان بأن الوعل يرقبه، قال في نفسه هو يراني، سطع شعاع الشمس من خلف الوعل مباشرة، أغمض سليمان عينيه متأثرا وعندما فتحهما كان الوعل قد أختفى .

فتح الباب، الرائحة التي احتلت أنفه هي ذات الرائحة القديمة للمكان، رائحة ذكرته بالصايغ وشريفه، رائحة أعادت إليه ذاكرة الزمن الغابر، أشياء شريفة مرتبة على الزاوية، سحّارتها المعدنية تقبع هناك وفوقها يتكوم الفراش والأغطية، الحصير على الأرض وقد أكلت الأرضة معظمه .

خرج من الغرفة، جلس خارجها مفكرا فيما يفعل، شعر بأنه وحيد في ذلك العالم، تساءل : لماذا عاد ؟ ما الذي سيجده في قرية هجرها منذ عقود ؟ طرأت فكرة أموال أبيه على باله، سوف يسأل عنها، وسوف يشتغل فيها، بعد أن يستفيد من الأموال التي جلبها معه .

في الأيام التالية اطلع سليمان على اموال أبيه، كانت منسية وغير مستغلة، فالقرويون يتركون أموال المسافرين على حالها أملا في عودتهم .

بدأ في استصلاح الأرض وزراعتها من جديد، استأجر من يحرث له الأرض وينظف المكان، ثم اشترى فسائل جديدة

وغرسها وبدأ في زراعة الأشجار المختلفة، غارقا في تفاصيل الزراعة .

بنى غرفتين جديدتين بجوار الغرفة القديمة، أبقى الغرفة بما احتوته، أملا منه في العودة إلى الرائحة كلما أراد أن يتذكر الماضي السحيق .

قال له الشايب محمد بن سلطان، أحد كبار السنّ من قبيلته، والذي كان سليمان ود الصايغ يجالسه في أوقات فراغه :

ـ لاقيلك بنية صغيرة ويتيمة، لكنها بنت مؤدبة وماشي كلام عليها .

في ذلك السن، وهو على مشارف الخمسينات، لم يكن همّ ود الصايغ الزواج، لكن الوحدة التي عاشها لخلوّ القرية من أحبابه، والفكرة التي فجرها محمد بن سلطان في رأسه، جعلته يطمح أكثر في الزواج .

ذهب الشايب محمد بن سلطان بنفسه إلى أم الفتاة، وفاتحها في الموضوع :

ـ هذا ابن الصايغ، وجاي من شومته الطويلة، وعنده غوازي، ويقدر يعيّش بنتش أحسن عيشة .

وتمت الزيجة بعد أيام، تزوج سليمان من سعدوه بنت مريهين، الفتاة اليتيمة التي قبلت الزواج به وجدت فيه عوضا عن الأب والحبيب .

قبلت سعدوه به زوجا ، لم تنظر لكبر سنه، هي إبنة السادسة عشرة، اليتيمة التي خرجت على الدنيا دون أن تنطق كلمة أبي، كان لديها أخ أكبر منها بقليل، ولقد توفي والدها في أحد الأسفار، يقال بأنه أصيب بلدغة أفعى سامة في أحد الدروب، تورم جسده من أثرها ولم يسعفه الحظ بدواء أو رقية، وفي ساعات قليلة خرجت روحه، ودفن على سفح جبل، بعد أن كفن بثيابه .

عرف سليمان كيف يجتذبها ناحيته، فهو الخبير صاحب الأسفار والنساء اللواتي ينتشرن في الموانيء والمدن الكثيرة .

بعد أسابيع دخلت سعدوه لتنظف الغرفة القديمة، قالت له ذلك الصباح :

ـ أبغى أنظفها ، نستفيد منها بدل ما مقفولة طول الوقت، الحي أولا بها من الميت .

أخرجت الفرش القديمة، وأخرجت سحارة شريفة، فتحتها فوجدت قميصا من الصوف مطويّ بعناية وموضوع بداخل السحّارة، فتحت القميص وعلقته على وتد بخارج الغرفة، عندما جاء سليمان، قالت له :

ـ شوف هذا القميص كان يناسبك .

تعجب ابن الصايغ، رفع القميص من الوتد ولبسه، وكأنه فصل له خصيصا، سألها من أين أتى، فأخبرته بانها وجدته في سحارة امه .

ضم ابن الصايغ يديه وتلمّس أكتافه، شعر بأمومتها تنتشر في كيانه، أخذته العبرة وأدمعت عيناه، اقترب من زوجته وعانقها .

شريفة هي كل الأمهات، كل النساء اللاتي عرفهن، يتذكر الآن الشبه الذي يجمعهن، كانت كل واحدة تأخذ صفة من أمه، وها هي أمه تباركه وصوله وبدء حياته في القرية من جديد، وتعطيه قميصا نسجته بيديها .

القميص الذي كان قاب قوسين منه، السحارة التي رفض فتحها مذ جاء إلى القرية، الوديعة التي كانت تود لو تستقبله بها حين عودته .

منذ تلك الأيام، وابن الصايغ يلبس القميص في أيام الشتاء القارسة، كل سنة يعود إليه فتنبعث رائحة أمه وذكرياتها، يغمض عينيه، يستنشق الرائحة بعمق ويختزنها في أعماق الصدر .

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm